كتاب مجلة " كلمة حق " (٤)
هدية العدد (١٥) من مجلة " كلمة حق " أكتوبر - ٢٠١٨

مختصر كتاب

عقيدة الصدمة

نعومي كلاين

هذه السلسلة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

لو أفنى الإنسان عمره في قراءة ما تكتبه الأقلام لم يبلغ أن ينهي منها إلا قدراً ضئيلاً، فالعقول لا تتوقف عن الإنتاج والمطابع لا تتوقف عن الهدير، وفي عصرنا هذا كاد الناس كلهم أن يكونوا أصحاب أقلام ولهم كتابات، فما عليك إلا أن يكون لك حساب على موقع تواصل اجتماعي فيكون قد صار لك منبر عام تكتب فيه.

ومن بين الكثير من الغثِّ قليلٌ من السمين، فأودية العقول كثيرة ونتاج الفلاسفة كغابة ضخمة متشابكة.. فالعلم النافع بالنسبة لبحور الأفكار كالدرر واليواقيت في أعماق البحار.

والعلم الذي تحتاجه أمة مهزومة مستضعفة تريد أن تنهض ليس كالعلم الذي تحتاجه الأمم في حال رفاهيتها ورخائها.. فإن أمتنا أحوج إلى فهم الدين الصافي الواضح كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهي بحاجة إلى فهم الواقع المعاصر لتُحسِن إصلاحه بما لديها من الدين، وتحتاج إلى علوم النهوض وبناء الأمم أكثر من حاجتها إلى علوم الترف والزينة والزخارف. وفي طليعة علوم النهوض: فهم الدين والسياسة والتاريخ والعلوم الأمنية والعسكرية.. فالمكتوب في هذه الأبواب أولى بالعناية والاطلاع والدراسة من غيره.

وقد أنعم الله علينا في مجلة " كلمة حق " بفكرة أن نقدم مع كل عدد كتاباً كهدية، ونحن بين أن نستخرجه من كتاب مهم، أو أن يكون تلخيصاً لكتاب مهم، أو أن يكون ترجمة لتقرير مهم.. وهكذا، نختاره بحسب ما نقدِّر أهمية الاطلاع عليه.

ونرجو أن يعيننا القراء الكرام بترشيحاتهم ومجهوداتهم، فالباب مفتوح لكل مجهود..

نسأل الله أن يكون علما نافعا وعملا صالحا خالصا لوجهه الكريم

مجلة
كلمة حق

الفصل الأول

إيوين كاميرون، وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، والسعي الهستيري إلى محو الذهن البشري وإعادة بنائه

أثناء بحثي عن نظرية الصدمة، وكيفية تعرض البلدان لها، عن طريق الحروب والهجومات الإرهابية والانقلابات والكوارث الطبيعية، وعن كيفية تعرض البلدان لصدمة ثانية، من خلال الشركات والسياسيين الذين يستغلون الخوف والضياع الناتجيْن عن الصدمة الأولى من أجل فرض معالجة بالصدمة الاقتصادية، وأيضًا عن كيفية إخضاع الأشخاص الذين يتجرأون على مقاومة هذه السياسات الصدمية لصدمة ثالثة، في حال دعت الحاجة، وذلك على أيدي عناصر الشرطة والجنود والمحققين.

كنت أتحدث مع غايل كاستنر أحد الأشخاص النادرين الذين نجوا من تجارب الصدمة الكهربائية وغيرها من تقنيات الاستجواب الخاصة التي مارستها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية بشكل سري.

كان هناك ثمة ما يدفعني إلى الاعتقاد أن البحث الذي أجري على غايل كاستنر في الخمسينيات في جامعة "ماكغيل" يطبق حاليًا على السجناء في معتقل غوانتانامو وسجن أبي غريب، يقال: إن ذلك التعذيب لا يقتصر على الحصول على معلومات، بل أظن أن الأمر يتعدى إلى إنشاء وطن نموذج يتم فيه محو شخصية الناس في محاولة لإعادة بنائها انطلاقًا من عدم.

كاميرون

مولت الاستخبارات المركزية الأميركية في الخمسينيات طبيبًا يدعى إيوين كاميرون كي يجري تجارب غريبة على المرضى النفسيين، بحيث يبقيهم في سبات وعزلة لمدة أسابيع، ثم يصف لهم جلسات هائلة من الصدمات الكهربائية إلى جانب كوكتيل من الأدوية قيد التجريب شملت "أل أس دي" DSL، العقار المثير لاضطرابات الإدراك، وال PCP، العقار المهلوس المعروف عامة بغبار الملائكة.

وقد أجريت تلك التجارب التي ردت المرضى إلى مراحل طفولية لم تتطور فيها بعد القدرة على النطق في معهد ألن التذكاري في جامعة ماكغيل.

وقد عمد كاميرون إلى إجراء تجاربه على مرضاه واستخدامهم بدون معرفتهم أو إذنهم؛ من

أجل إرضاء تعطش وكالة الاستخبارات الأميركية للحصول على معلومات حول كيفية التحكم في العقل البشري.

لم يلعب كاميرون دورًا أساسيًّا فقط في تطوير تقنيات التعذيب المعاصرة التي تستخدمها الولايات المتحدة، بل تقدم تجاربه -أيضًا- تفسيرًا فريدًا من نوعه للمنطق الكامن وراء رأسمالية الكوارث، فكما أن اقتصاديي السوق الحرة مقتنعون بأن الكارثة الواسعة الإطار -دمارًا ضخمًا- هي الوحيدة القادرة على أن تهيئ الأرضية اللازمة لإصلاحاتهم المنشودة، كذلك اعتقد كاميرون أنه يستطيع عن طريق إنزال سلسلة من الصدمات بالدماغ البشري، أن يمحو الأذهان الشائبة وينفضها، ثم يعيد بناء شخصيات جديدة انطلاقًا من تلك الصفحة البيضاء المستحيلة المنال.

مولت وكالة الاستخبارات المركزية أعمال كاميرون لغاية العام 1691، ولم يتضح طوال أعوام عديدة ماذا فعلت الحكومة الأمريكية بأبحاثه، وفي أواخر السبعينيات والثمانينيات عندما تم الكشف أخيرًا عن قيام الوكالة بتمويل التجارب في جلسات مجلس الشيوخ الأمريكي، مال الصحافيون والمشرعون إلى قبول نسخة الوكالة عن الأحداث، نسخة زعمت فيها أنها كانت تجري أبحاثًا حول تقنيات غسل الدماغ بهدف حماية الجنود الأسرى.

شجعت الوكالة من جهتها انتشار هذا الخبر مفضلة أن يهزأ بها العالم على أنها مروجة كبرى لخرافات الخيال العلمي، بدلاً من أن تتهمهم بتمويل مختبرات للتعذيب في جامعة محترمة.

علم الخوف

أجرت النيويورك تايمز في العام1988 تحقيقًا جديدًا من نوعه حول تورط الولايات المتحدة في عمليات التعذيب والاغتيالات التي وقعت في جزر الهندوراس.

وقد أعلن فلورنسيو مباليرو -وهو مستجوب في إحدى الكتائب الهندوراسية التي اشتهرت بعنفها- أنه نقل هو وأربعة من زملائه إلى تكساس حيث تلقوا تدريبات على يد وكالة الاستخبارات وقال: "لقد علمونا استخدام أساليب نفسية؛ بغية دراسة مخاوف السجين ونقاط ضعفه".

الفشل في إعادة البناء

كانت نظرية كاميرون ترتكز على فكرة أن صدم المرضى وردهم إلى حالة أكثر تقاعسًا وفوضوية، سيوفران له الظروف الممهدة لإعادة توليدهم كمواطنين صالحين ونموذجيين، لكن كاميرون مني



بفشل ذريع، فمهما عمد إلى تنكيس مرضاه لم يستوعب هؤلاء أبدًا ولم يقبلوا بشكل كامل الرسائل التي كان يكررها على مسامعهم، وبرغم أنه كان نابغة في تحطيم الناس، فإنه كان عاجزًا عن إعادة صنعهم، وأفادت الدراسات اللاحقة بأن 57% من مرضاه السابقين كانوا أسوأ حالاً بعد العلاج. كمنت المشكلة التي تبدو واضحة كثيرًا بعد مراجعة الأحداث، في الواقع، في المقدمة المنطقية التى بنى عليها كاميرون مجمل نظريته: فقد تمثلت فكرته في وجوب تدمير كل شيء، وحذفه قبل حدوث عمليات الشفاء.

كان كاميرون متأكدًا من أنه إذا تخلص من عادات المريض السيئة، وتصرفاته وذكرياته، فسيتمكن من بلوغ تلك الصفحة البيضاء الطاهرة، لكن برغم شدة الصدمات والعزل الحسي التي كان يقوم بها وكمية العقاقير التي كان يصفها ومحاولات التضييع، لم يصل إلى تلك النقطة.

في الواقع يتقاسم رأسماليو الكارثة مع كاميرون ذلك العجز عن التمييز بين الدمار والخلق، وبين الإيذاء والشفاء، لقد راودني مثل هذا الشعور عندما كنت في العراق، أمسح الأراضي المحيطة المندبة في انتظار الانفجار التالي.

اعتقد المؤمنون المتحمسون في قوى الصدم التكفيرية، ومهندسو الاجتياح الأمريكي البريطاني، أن استخدامهم القوة سيكون صاعقًا ومدهشًا، إلى درجة أن العراقيين سيقعون في حالة من الذهول تمامًا، واعتقدوا أنه من خلال نافذة الفرص تلك، أمكنهم دس سلسلة أخرى من الصدمات، صدمات اقتصادية هذه المرة من شأنها أن تولد نموذجًا لديموقراطية السوق الحرة على خلفية الصفحة البيضاء، التي تمثل العراق الجديد، عراق ما بعد الاجتياح.

إلا أنه لم يكن ثمة صفحة بيضاء، بل ركام وأناس غاضبون ومدمرون، أناس تلقوا من خلال مقاومتهم الاجتياح، المزيد من الصدمات، التي ارتكز بعضها على التجارب التي أجريت على غايل غاستنر طوال الأعوام التي مضت.

ويقول القائد في كتيبة الفرسان الأولى في الجيش الأمريكي، الجنرال بيتر و. شياريلي، بعد سنة ونصف على نهاية الحرب بشكل رسمي:

"نحن ماهرون حقًّا في الخروج لتدمير الأشياء، لكن اليوم الذي سأمضي فيه وقتًا أطول هناك وأنا أشارك في عملية البناء بدلاً من القتال، سيكون يومًا رائعًا ".

لكن ذلك اليوم لم يأت أبدًا، فعلى غرار كاميرون يملك أطباء العراق القدرة على التدمير، لكن يبدو أنهم عاجزون عن إعادة البناء.

الفصل الثاني

طبيب الصدمة الآخر

ميلتون فريدمان والبحث عن مختبر لسياسة عدم التدخل

كما كان القسم الطبي في جامعة ماكغيل في تلك الفترة في قبضة إيوين كاميرون، كذلك كان قسم العلوم الاقتصادية في جامعة شيكاغو أسير رجل طموح وصاحب شخصية جذابة هو ميلتون فريدمان.

ارتكزت مهمة فريدمان كما مهمة كاميرون، على حلم العودة إلى تلك الحالة الصحية الطبيعية التي كان التوازن فيها مستتبًا على نحو كامل.

حلم فريدمان بتفكيك نمط المجتمع وتحويله إلى حالة من الرأسمالية النقية المطهرة من جميع التشويشات الخارجية، سواء أتت تلك التشويشات من أنظمة الحكومة، أم من الحواجز التجارية، أم من المصالح المتجذرة، كذلك اعتقد فريدمان على غرار كاميرون أنه عندما يخرب الاقتصاد على نحو كبير، تختصر الطريقة الوحيدة لبلوغ حالة ما قبل الانحطاط تلك برفض صدمات موجعة متعمدة: فوحده الدواء المرير هو الذي سيزيل تلك الشوائب والأنماط السيئة من الطريق.

في الواقع استخدم كاميرون الكهرباء لإنزال تلك الصدمات، أما الأداة التي اختارها فريدمان فكانت السياسة، لقد عمد إلى حث السياسيين الجريئين في البلدان ذات الوضع المتأزم على مقاربة الأزمة من خلال المعالجة بالصدمة، لكن على عكس كاميرون الذي استطاع أن يطبق نظرياته المفضلة على مرضاه الغافلين، لزم فريدمان عقدين من الزمن وبعض الانعطافات والتحولات التاريخية، قبل أن تسنح له الفرصة لتحقيق أحلامه الهادفة إلى إجراء حذف وإعادة إعمار جذريين في أرض الواقع.

يعتبر فريدمان في نظريته الصارمة حول إدارة العملة أن السبب الكامن وراء معاناة السوق مستويات عالية من التضخم، يعزى بشكل حصري إلى سماح صناع السياسات الضالين بدخول مبالغ فائضة من الأموال إلى النظام، بدلاً من ترك السوق تجد توازنها بشكل تلقائي.

فإن سُمح للسوق بأن تعمل وفقًا لألياتها الذاتية تمامًا كما تقوم الأنظمة البيئية بتنظيم نفسها بنفسها، فتحافظ على توازنها، فإنها ستتيح المجال للعمال كي ينتجوا العدد المناسب من المنتجات التي تكون بدورها مسعرة بدقة وعدل: "جنة عدن مليئة بالوظائف والخلق اللا محدود، وخالية من التضخم".

يعتبر هذا العشق لنظام مثالي بالنسبة إلى دانييل بيل عالم الاجتماع في جامعة هارفرد، بطاقة تعريفية خاصة باقتصاد السوق الحرة، وهو ينظر إلى الرأسمالية على أنها سلسلة دُرية من الحركات، أو إنجاز سماوي.

كان التحدي الذي يقف أمام فريدمان وزملائه هو كيفية إثبات إمكانية ارتقاء السوق إلى مستوى تصورهم المثالي، لكنه على ضوء عجز فريدمان وزملائه على اختبار نظرياتهم في المصارف والوزرات التجارية المركزية، اضطروا إلى الاكتفاء بالمعادلات الحاسوبية، والنماذج الرياضية الحاذقة التي وضعوا تصاميمها.

يعتبر المؤمنون الفعليون بمبادئ مدرسة شيكاغو الاقتصادية، على غرار جميع المعتقدات المتشددة، أن الاقتصاد هو حلقة مقفلة، وتفيد المقدمة المنطقية الأولى التي يستندون إليها بأن السوق الحرة هي نظام علمي مثالي ينتج فيه الأفراد الذين يعملون وفقًا لمصالحهم الذاتية الخاصة، أكبر قدر من الفوائد، ويضعونها في متناول الجميع، ويستتبع ذلك بالطبع أنه إذا طرأ خلل على تلك السوق الحرة -تضخم كبير، أو بطالة متزايدة- فإن السبب في ذلك يكون ناتجًا عن نقص في حريتها، ففي تلك الحالة لا بد من أن يكون تشويش ما قد عبث بالنظام، أو أن شائبة قد أصابته، وإزاء هذا الوضع تطرح مدرسة شيكاغو حلاًّ وحيدًا لا يتغير: اعتماد صرامة أكثر وأشمل في تطبيق الأساسيات.

وقد عُزي جزء كبير من الجاذبية التي تميزت بها مدرسة شيكاغو الاقتصادية إلى توفيرها طريقة للدفاع عن مصالح أصحاب العمل، اتصفت بالقدر نفسه من التطرف والتحيز اللذين أبدتهما في نزعتها الخاصة إلى المثالية.

وحيث وعد اليساريون بتحرير العمال من أرباب العمل والمواطنين من الديكتوريات والبلدان من الاستعمار، وعد فريدمان بالحرية الفردية، وهو مشروع ارتقى بالمواطنين إلى درجة أعلى من المشاريع الجماعية وحررهم بحيث أصبح في إمكانهم التعبير عن إرادتهم المطلقة من خلال خياراتهم الاستهلاكية.

ويكمن السؤال عن كيفية الوصول إلى ذلك العالم العجيب، كان الماركسيون واضحين: الثورة، والتخلص من النظام الحالي والاستعاضة عنه بالاشتراكية.

أما بالنسبة إلى تلامذة مدرسة شيكاغو فلم يكن الجواب بمثل هذه الصراحة.

لقد كانت الولايات المتحدة بلدًا رأسماليًّا، لكنها بالكاد اعتبرت كذلك بالنسبة إليهم، فقد رصدوا تدخلات أينما نظروا سواء في وطنهم أو في البلدان المفترض أنها رأسمالية، كان السياسيون قد ثبتوا الأسعار بهدف وضع المنتجات في متناول الجميع، وقاموا بتحديد حد أدنى للأجور؛ لعدم

استغلال العمال، وأبقوا قطاع التعليم في يد الحكومة بهدف ضمان حق التعليم، لكن فريدمان وزملاءه كانوا مقتنعين -وقد أثبتوا ذلك من خلال النماذج التي قدموها- بأن هؤلاء السياسيين كانوا يخلّون بشكل غير مباشر باستقرار السوق، وبقدرة مؤشراتها المتنوعة على التواصل فيما بينها، وتمثلت مهمة مدرسة شيكاغو في التطهير، أي: تجريد السوق من تلك التدخلات؛ حتى تتمكن السوق الحرة من إيجاد المتنفس المناسب لها.

من هذا المنطلق لم ير تلاميذ مدرسة شيكاغو في الماركسية عدوًّا فعليًّا لهم، بل ما أزعجهم هو الكينزية نسبة إلى رجل الاقتصاد كينز في الولايات المتحدة، والديموقراطيون الاجتماعيون في أوروبا، والتنمويون.

التنموية

مع صعود العالم النامي الذي عرف باسم التنموية، أو قومية العالم الثالث، جادل الاقتصاديون التنمويون بأن بلدانهم لن تسلم في نهاية الأمر من حلقة الفقر سوى عن طريق اعتمادها استراتيجية صناعية داخلية، بدلاً من الاعتماد على تصدير الموارد الطبيعية التي كانت أسعارها تنحو نحو الهبوط، كما طالبوا بتنظيم الصناعات النفطية والمعدنية وغيرها من الصناعات المهمة وحتى تأميمها.

تمكن التنمويون مع حلول الخمسينيات من التفاخر بسلسلة من روايات النجاح المؤثرة، وشكل الطرف الجنوبي لأميركا اللاتينية أو ما يعرف بالمخروط الجنوبي: التشيلي والأرجنتين والأرغواي وأجزاء من البرازيل أكثر مختبرات التنمويين تقدمًا.

كانت رؤية فريدمان وإن تخفت وراء لغة الرياضيات والعلم، فقد توافقت تمامًا مع مصالح الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات التي كانت تتوق بطبيعتها إلى أسواق جديدة شاسعة وغير منظمة.

كان الاستعمار في المرحلة الأولى من توسع الرأسمالية هو الذي يؤمن هذا النوع من النمو الجامح، أي: من خلال استكشاف أراض جديدة، والاستيلاء عليها بدون تسديد مبلغها، ومن ثم استخرج الثروات من تربتها بدون التعويض للسكان الأصليين.

لقد حملت حرب فريدمان على دولة الرعاية الاجتماعية والحكومات الكبرى في طياتها، أملاً بنوع جديد من التدفق السريع للثروات، إلا أنه هذه المرة لن يكون هناك غزو لأراض جديدة، بل لحكومات جديدة، سيعمد إلى بيع خدماتها العامة وأصولها في المزاد العلني بأقل من قيمتها الفعلية بكثير.

الحرب ضد التنمويين

شكل النجاح المتزايد للاقتصاد القومي في المخروط الجنوبي لأميركا اللاتينية مصدر قلق لوزارة الخارجية الأمريكية، وبدأت الشركات الأميركية والأوروبية التي تتعامل مع أميركا اللاتينية تشتكي لحكوماتها، فكانت منتجاتها تمنع من دخول الحدود، وعمالها يطالبون بمعاشات أعلى، والأخطر من ذلك تزايد الحديث عن تأميم كل شيء، بدءًا من المناجم التي كانت تملكها شركات أجنبية، وصولاً إلى المصارف، وذلك بهدف تمويل حلم أمريكا اللاتينية بتحقيق استقلالها الاقتصادي.

وظهرت نظرية تقول: "إياكم أن تنخدعوا بالمظهر المعتدل والديموقراطي، قومية العالم الثالث تشكل الخطوة الأولى في طريق الشيوعية التوتاليتارية، ويجب القضاء عليها وهي في مهدها".

وكان أهم المروجين لتلك النظرية جون فوستر دالاس وزير خارجية آيزنهاور، إضافة إلى أخيه ألن دالاس رئيس وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

حدث الانقلاب الأول في عام 1953 عندما نجح مخطط الاستخبارات الأميركية في إسقاط مصدق في إيران واستبداله بالشاه الاستبدادي، ووقع الانقلاب الثاني في عام1954الذي حصل في غواتيمالا برعاية وكالة الاستخبارات المركزية.

كان التحدي الأكبر هو استئصال التنموية من المخروط الجنوبي، وتوصلوا إلى اختيار مختبر تجرى فيه تجارب السوق الحرة، مانحة بذلك ميلتون فريدمان ما كان يتوق إليه، ووقع الاختبار على دولة تشيلي.

كانت الخطة أن تقدم الحكومة الأمريكية منحًا دراسية إلى التشيليين؛ كي يدرسوا العلوم الاقتصادية في جامعة شيكاغو.

وأصبح زرع عقيدة مدرسة شيكاغو في أذهان الطلاب الزوار أولوية مؤسسية بحتة، كانت أشبه ما تكون بعمليات غسيل الدماغ.

وفي النهاية عندما غادر أعضاء أول فريق من التشيليين شيكاغو وعادوا إلى موطنهم كانوا متحيزين لأفكار فريدمان أكثر مما كان هو متحيزًا لها، وقد عمل كثيرون من هذا الفريق كأساتذة لمادة الاقتصاد، ولم يتأخروا عن نقل أفكارهم إلى تلاميذهم.

إلا أنه كانت ثمة مشكلة: لم يكن النظام يعمل؛ فوفقًا لتقرير رفعته جامعة شيكاغو في العام 1957 إلى مؤسيسها في وزارة الخارجية "كان الهدف من المشروع تدريب جيل من الطلاب على أن يصبحوا القادة الفكريين في الشؤون الاقتصادية في التشيلي"، لكن لم يكن صبيان شيكاغو -الاسم الذي أطلق عليهم- يقودون بلادهم إلى أي مكان، في الواقع كان يتم التخلي عنهم.

كانت التشيلي محور تجربة مدرسة شيكاغو هي البلد الذي تأكد فيه وقوع هزيمة الأفكار، فبحلول موعد الانتخابات التشيلية التاريخية للعام1970 كان البلد قد مال كثيرًا إلى اليسار، لدرجة أن الأحزاب الرئيسية الثلاثة كانت مع تأميم أكبر مصدر قومي للعائدات: مناجم النحاس التي كانت تملكها وقتها الشركات الأمريكية الكبرى.

فازت حكومة الوحدة الشعبية التي ألفها سلفادور آلندي، والذي كان ديموقراطيًّا "عن حق وحقيق"، آمن أن التغير الديموقراطي في التشيلي كان في حاجة إلى أن يخرج من صندوق الاقتراع وليس من طرف البندقية، عندما سمع نيكسون بأن آلندي قد انتخب رئيسًا طلب بشكل علني من مدير الاستخبارات المركزية الأمريكية ريتشارد هلمز أن ينزل الألم بالاقتصاد.

حالما فاز آلندي بالانتخابات أعلنت الشركات الأمريكية الحرب على إدارته، وقد تمحور نشاطها في اللجنة الخاصة بالتشيلي التي اتخذت مقرًّا لها في واشنطن.

كان هدف اللجنة الوحيد هو إجبار آلندي على التراجع عن التأميم من خلال مواجهته بالانهيار الاقتصادي.

عين آلندي صديقه أرلندو سفيرًا للتشيلي في واشنطن، موكلاً إياه مهمة التفاوض حول شروط المصادرة مع الشركات نفسها التي كانت تتآمر لتخريب حكومته.

لكن في عام1972وفي قلب المفاوضات ظهرت وثائق تبين أن شركة "أي تي تي" قدمت رشوة بقيمة مليون دولار إلى قوى المعارضة، كان الهدف منها توريط وكالة الاستخبارات الأمريكية في خطة سرية للتلاعب بنتيجة الانتخابات الرئاسية التشيلية.

لكن بعد نجاح آلندي انتقلت الشركة إلى خطة جديدة صُممت لضمان عدم نجاحه خلال الشهور الستة القادمة من ولايته.

لكن رغم ملايين الولايات المتحدة والتي أنفقت سرًّا من أجل إضعاف شعبية آلندي، فاق الدعم الذي حصل عليه عندما انتخب في المرة الأولى 1970، وبدا من الواضح أن الخيار اليساري كان يتنامى في التشيلي.

دروس في تغيير النظام

البرازيل وإندونيسيا

كان أعداء آلندي ينظرون مليًّا في نموذجين محتملين لتغيير النظام:

الأول: النموذج البرازيلي عندما استولت الطغمة العسكرية 1964 على السلطة بدعم الولايات المتحدة، لم يكن الهدف الأساسي من خطتها الانقلاب على برامج "خواو غولارت" لمناصرة الفقراء، بل فتح أبواب البرازيل على مصراعيها أمام الاستثمارات الأجنبية، ولم تقع أعمال عنف أو توقيفات جماعية، وأيضًا لم يمس ببعض ما تبقى من معالم الديموقراطية بما في ذلك الحرية الإعلامية المحدودة، وحرية التظاهر، فكان الانقلاب لبقًا ونظيفًا نوعًا ما.

النموذج الثاني: إندونيسيا: انقلاب الجنرال سوهارتو على سوكارنو، وكان انقلابا دمويًّا عنيفًا بدعم كامل من الولايات المتحدة التي قامت بتأمين السلاح وأجهزة الاتصال للجنرال سوهارتو، والذي قام بمذابح بشعة.

كان سوهارتو قد بين أن استخدام القمع الجماعي كتدبير وقائي سيدخل البلاد في حالة من الصدمة، ويمكن عندها استئصال المقاومة قبل نشوبها.

استخدم سوهارتو الرعب بدون رحمة، وبشكل فاق أسوأ التوقعات، إلى درجة أن دب الرعب في قلوب الناس الذين كانوا قبل أسابيع قليلة يكافحون بشكل جماعي لتأكيد استقلال بلادهم، فسلموا كامل زمام الحكم إلى سوهارتو وأنصاره.

بعد انتخاب آلندي بوقت قصير بدأ أعداء آلندي يقلدون المقاربة الإندونيسية بدقة غامضة، وشكلت الجامعة الكاثوليكية موئل صبيان شيكاغو نقطة الصفر التي نشأ منها ما سمته وكالة الاستخبارات الأميركية: "المناخ الانقلابي".

وفي عام 1971 عقد كبار رجال الأعمال في التشيلي اجتماعًا طارئًا من أجل تطوير استراتيجية محكمة لتغيير النظام.

جرى خلال فترة من الزمن التخطيط للانقلاب على مسارين مختلفين: خطط الجيش للقضاء على آلندي، بينما خطط الاقتصاديون للإطاحة بأفكارهم.

أظهر انقلاب التشيلي لدى وقوعه ثلاثة أشكال مختلفة من الصدمة، وقد شكلت تلك الأشكال وصفة ستستنسخ لاحقًا في البلدان المجاورة.

أُتبعت صدمة الانقلاب بشكلين إضافيين من الصدمة، كان أحدهما تقنية المعالجة بالصدمة الرأسمالية لفريدمان، أما ثانيهما فكان الصدمة التي اعتمدها إيوين كاميرون في بحثه عن العقاقير والحرمان الحسي "تقنيات التعذيب المعتمدة".



الفصل الثالث

حالات الصدمة

كان الانقلاب على آلندي من خلال الجيش بقيادة الجنرال أوغوستو بينوشي في أيلول 3791 حربًا وليست انقلابًا.

فقد كانت الدبابات تطلق الصواريخ وهي تزحف نحو المستديرات، بينما كانت المباني الحكومية تتعرض لقصف المقاتلات النفاثة.

كان بينوشي يهيمن منذ البداية وبشكل كامل على الجيش والأساطيل الحربية والبحرية والشرطة، ولم يكن الرئيس آلندي يملك جيشًا خاصًا به؛ إذ إنه كان يرفض طوال تلك الفترة أن يحشد أنصاره في قوى مسلحة دفاعية.

أراد بينوشي قائد الانقلاب أن يكون الحدث تراجيديًّا ومأساويًّا بقدر الإمكان، لقد كان نذيرًا لعقيدة الصدم والترهيب في الواقع.

كان المدربون الأميركيون الذين تألف العديد منهم من رجال وكالة الاستخبارات الأمريكية خلال الأعوام التي مهدت للانقلاب، قد حولوا الجيش التشيلي إلى قنبلة موقوتة مناهضة للشيوعية، بعد أن أقنعوا عناصره بأن الاشتراكيين جواسيس روسيون، وقوة غريبة عن المجتمع التشيلي، لكن في الواقع كان الجيش هو الذي تحول إلى عدو فعلي للوطن، وبات على جهوزية لشهر سلاحه في وجوه المواطنين الذين أقسم اليمين على حمايتهم.

كان الانقلاب دمويّا بشكل رهيب، وتم قتل أعداد رهيبة من المدنيين، واحتجاز آلاف الأسرى في السجون والمعتقلات التي حولت إلى غرف تعذيب رهيبة، وبدأت الجثث الرهيبة تظهر إلى جوانب الطرقات العامة.

الجبهة الاقتصادية

في اليوم الذي حدث فيه الانقلاب سارع صبيان شيكاغو للترويج لأفكارهم عبر وثيقة تم نشرها، مشابهة بشكل صارخ لتلك التي وردت في كتاب ميلتون فريدمان "الرأسمالية والحرية": الخصخصة وإزالة القواعد والحد من الإنفاق الاجتماعي.

كان أوغستو بينوشي قبل الانقلاب مشهورًا بالانقياد وصولاً إلى حد التذلل، كان لا ينفك عن مدح

قادته المدنيين ويوافق على آرائهم.

أما كديكتاتور فقد اكتشف بينوشي نواحي جديدة في شخصيته؛ لقد استولى على السلطة بشهية لم تشهد من قبل، وتكلف عظمة الحاكم مدعيًّا أن القدر قد أوكله بواجبه، وبعد وقت قصير ألحق الانقلاب الأول بانقلاب ثان على القادة العسكريين الثلاثة الآخرين، بعد أن كان قد اتفق معهم على على تقاسم السلطة، فأزاحهم من مناصبهم، وأطلق على نفسه لقب القائد الأعلى للأمة، إضافة إلى لقب الرئيس.

كان بينوشي يملك براعة فطرية في الحكم الاستبدادي إلا أنه كان لا يفقه شيئًا تقريبًا في العلوم الاقتصادية، وقد كانت حملة تخريب المؤسسات التي قادتها شركات أي تي تي فعالة في تدهور الاقتصاد، وبالتالي وجد بينوشي نفسه أمام أزمة في ذروة نموها.

كان بينوشي في خلال السنة ونصف الأولى وفيًّا لقواعد مدرسة شيكاغو، وخصص بعض الشركات التي تملكها الحكومة بما في ذلك عدة مصارف، وشرع الأبواب أمام الواردات الأجنبية، وخفف الإنفاق الحكومي بنسبة 10% باستثناء الإنفاق على الجيش الذي شهد ازديادًا كبيرًا، كما ألغى المراقبة على الأسعار.

كان صبيان شيكاغو قد أكدوا بثقة لبينوشي أنه إذا أوقف بشكل مفاجئ تدخل الحكومة في جميع تلك المجالات فإن القوانين الطبيعية للاقتصاد ستستعيد توازنها، وستنخفض نسبة التضخم بشكل سحري، لكنهم كانوا على خطأ؛ ففي479 وصلت نسبة التضخم إلى 375%.

حتى مع نصائح فريدمان التي وجهها لبيونشي أثناء زيارة الأول لتشيلي، والتعامل بصرامة أكثر في تطبيق النظرية، كل ذلك باء بالفشل الذريع.

بقى بينوشي في السلطة مدة 71 عامًا، غير خلالها اتجاهه السياسي أكثر من مرة، ولم تبدأ فترة النمو الثابت في البلد سوى في منتصف الثمانينات، أي: بعد عقد كامل من تطبيق صبيان شيكاغو المعالجة بالصدمة، ويعود تفسير ذلك إلى العام 1982 الذي انهارت فيه تشيلي برغم التزام بينوشي بعقيدة مدرسة شيكاغو، ووصلت نسبة البطالة إلى 30%، وأصبح الوضع شديد الاضطراب لدرجة أن بينوشي قد أجبر على القيام بما قام به آلندي من قبل، وهو تأميم العديد من الشركات، وإزاء هذه الهزيمة فقد معظم صبيان شيكاغو مناصبهم النافذة في البلد.

كان الشيء الوحيد الذي حمى التشيلي من الانهيار الاقتصادي التام في الثمانينيات هو عدم إقدام بينوشي على خصخصة "كوديلكو"، وهي شركة تعدين النحاس التابعة للدولة، التي كان آلندي قد أممها، كانت تلك الشركة تولد 58% من عائدات التصدير، ما يعني أنه عندما انفجرت الفقاعة المالية، كان لا يزال لدى الدولة مصدر ثابت للدخل.

انتشار الثورة واختفاء الشعب

انتشرت الثورة المضادة التي أطلقتها مدرسة شيكاغو في أمريكا اللاتينية بسرعة، كانت البرازيل واقعة أصلاً في قبضة الطغمة العسكرية المدعومة من أمريكا، وكان يتولى المناصب الأساسية فيها عدد من تلاميذ مدرسة فريدمان.

وعام 1973 نظم الجيش في أوروجواي انقلابًا عسكريًّا وانتهج نهج مدرسة شيكاغو، وانضمت الأرجنتين إلى التجربة بانقلاب عسكري عام 1976، وباتت تلك الدول تشكل مختبرات حية لتجارب مدرسة شيكاغو الاقتصادية.

ولم ينج الناس في الأرجنتين من خطورة تلك الخطوة، ففي غضون سنة خسرت الأجور 40% من قيمتها، وأغلقت المصانع وانتشر الفقر.

وتبع ذلك أعمال عنف من قبل الدولة شملت عمليات قتل واعتقالات واسعة، وزادت مخيمات التعذيب لتصل إلى 300 مخيم على امتداد البلاد.

وقد شهدت تلك الدول تعاونًا وثيقًا في مجال تبادل الخبرات حول كيفية استجواب المسجونين، وأفضل الطرق في ذلك.

وكانت عمليات التعذيب تتم وفقًا لتجارب جامعة ماكيغل "توقيفات الصباح الباكر والتكبيل، والعزل المكثف، والتخدير، والإجبار على التعري، والصدمة الكهربائية".

غطاء الحرب على الإرهاب

حين افتضحت تلك الجرائم كانت الطغمة العسكرية تبرر ذلك باعتبارها في حرب على الأرض ضد إرهابيين ماركسيين تمولهم الاستخبارات السوفيتية وتقودهم، وتزعم أنها كانت تستخدم أساليب تكتيكية قذرة لمجاراة وحشية عدوها.

مولت وكالة الاستخبارات الأمريكية في هرولتها لإحداث الانقلاب ضد سلفادور آلندي حملة دعاية مكثفة من أجل تصوير آلندي كطاغية متخف ومخطط للماكفيلية، استخدم الديموقراطية الدستورية من أجل كسب السلطة، لدرجة أنه لم يكن أمام الجنرالات خيار آخر سوى تعليق الديموقراطية، والاستيلاء على الدولة، واستخدام كافة الوسائل الضرورية لسحق آلندي.

الفصل الرابع

تنظيف الصفحة

عاد أورلندو توليه في عام 1976 إلى واشنطن كناشط في معهد الدراسات السياسة، وشن حملة شعواء على نظام بينوشي وقضح جرائمه، كما هاجم فريدمان ووصفه بأنه يتحمل جزءًا من المسؤولية عن جرائم بينوشي، لكن أورلندو سرعان ما لقي نحبه في تفجير في واشنطن من تدبير بينوشي.

التطهير الثقافي

نظمت الطغمة العسكرية في كل من التشيلي والأرجنتين والأرغواي عمليات تطهير عقائدية، فأحرقت كتب فرويد وماركس ونيرودا، وأغلقت مئات الجرائد والمجلات، واحتلت الجامعات، ومنعت الإضرابات والاجتماعات السياسية، كما تم إقصاء الاقتصاديين اليساريين المعتدلين، كما تم عمل هجوم رهيب على رؤساء النقابات وتحجيمهم وفض إضراباتهم بالقوة الغاشمة، واختطاف الكثير منهم وقتلهم.

التعذيب برعاية الشركات

كانت عمليات الهجوم التي يتعرض لها رؤساء النقابات تنفذ بتعاون وثيق مع أرباب العمل، ودعم قوي من بعض الممولين التابعين لشركات أجنبية متعددة الجنسيات.
وكان تورط فرع شركة فورد المحلي في جهاز الرعب الذي أنشأ في الأرجنتين جليًّا للغاية؛ فقد زودت الجيش بالسيارات التي تستخدم في عمليات الخطف والاغتيالات.

التعذيب كعلاج

اعتمد العديد من الجلادين في تلك الدول وضعية الطبيب أو الجراح، وكان هؤلاء المحققون على غرار اقتصاديي شيكاغو والمعالجة بالصدمة الموجعة، يتخيلون أن الصدمات الكهربائية وغيرها من أساليب التعذيب كانت علاجية، أي: أنهم يصفون نوعًا من الدواء لسجنائهم، الذين كانوا غالبًا يشار إليهم داخل المعتقل بالمرضى.

الفصل الخامس

طرح كاتب العمود في النيويورك تايمز أنطوني لويس سؤالاً بسيطًا لم يخلُ من السخونة: إن كان القمع هو الثمن الذي يجب أن يدفع لتنفيذ نظرية شيكاغو الاقتصادية في التشيلي، ألا يجب أن يشعر أصحاب تلك النظرية بجزء من المسؤولية؟

بعد مقتل أورلندو لوتولييه طالب الناشطون بتحميل المهندس الفكري لثورة تشيلي الاقتصادية مسؤولية الكلفة البشرية التي تسببت فيها سياساته.

وشنّ الكثيرون هجومًا عنيفًا على فريدمان، وكان الطلاب في جامعة شيكاغو ينزعجون لدى معرفتهم بتعاون أساتذتهم مع الطغمة العسكرية، إلى درجة أنهم أخذوا يطالبون بتحقيق أكاديمي.

وكتب فريدمان في صحيفة النيوزويك "برغم خلافي الشديد مع النظام الاستبدادي في التشيلي، أنا لا أعتبر إسداء نصيحة تقنية للحكومة التشيلية فعلاً شريرًا".

فورد على فورد

كان دور مؤسسة فورد الأساسي في المخروط الجنوبي قبيل الانقلاب العسكري هو تمويل تدريب الأكاديميين، لا سيما في مجالي علم الاقتصاد وعلم الزراعة، وذلك بالعمل بشكل وثيق مع وزارة الخارجية الأميركية.

وكانت مؤسسة فورد الممول الأول للبرنامج الأميركي اللاتيني للبحث والتدريب الاقتصادي التابع لجامعة شيكاغو، الذي أطلق العديد من صبيان شيكاغو.

كما أسست كلية العلوم الاقتصادية في جامعة إندونيسيا، وكانت هي المؤسسة التي دربت اقتصاديي سوهارتو على بيع النفط الإندونيسي والثروة المعدنية إلى الشركات الغربية متعددة الجنسيات.

كان صيت مؤسسة فورد يزداد سوءًا، وكان متخرجو برنامجها القياديون يتزعمون الدكتاتوريات اليمينية الأعنف في العالم، لذا أثيرت التساؤلات حول السبب الذي جعل مؤسسة مكرسة إلى درجة كبيرة للسلام والديموقراطية متورطة حتى الأذنين في الاستبدادية والعنف.

الفصل السادس

تعاملت فورد مع مشكلة الاستبداد بطريقة استباقية كما قد تفعل أي مؤسسة ناجحة، سواء أفعلت ذلك نتيجة للهلع أم للوعي الاجتماعي.

فبعد أن أزيل اليسار في تلك البلدان على أيدي أنظمة كانت فورد قد ساهمت في تشكيلها، أتت مؤسسة فورد نفسها لتمول جيلاً جديدًا من المحامين الفاتحين الذين يكرسون أنفسهم لتحرير مئات آلاف السجناء السياسيين المحتجزين لدى تلك الأنظمة.

عندما عاد فريدريك هايك القديس الشفيع لمدرسة شيكاغو من زيارة للتشيلي 1981، أبدى إعجابه بأوغستو بينوشي وصبيان شيكاغو، وكتب رسالة إلى صديقته مارغرت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا لتستعين بهذا البلد كنموذج لإحداث نقلة في الاقتصاد البريطاني الذي كان مرتكزًا على مذهب كينز.

لكن المعالجة بالصدمة على نمط مدرسة شيكاغو لم تكن ممكنة في ديموقراطية كبريطانيا، فقد كانت تاتشر في السنة الثالثة من ولايتها، وكانت شعبيتها الانتخابية تتراجع؛ لذا لم تكن على استعداد لأن تجازف بخسارة الانتخابات القادمة، من خلال قيامها بأمر جذري أو غير ذي شعبية.

كان فريدمان قد مني قبل عقد من الزمن بفشل ذريع في الولايات المتحدة لم يتسبب فيه أحد سوى نيكسون، فعندما استلم الأخير منصبه في عام 1969 اعتقد فريدمان أن الوقت قد حان لأن يقود ثورته المضادة لإرث الخطة الاقتصادية الجديدة.

وكان نيكسون قد عين الكثير من أصدقاء فريدمان في مناصب مهمة، وكان منهم دونالد رامفسيلد.

كان كل شيء على ضوء السياسة التي اتبعها في استقطاب التلاميذ وعلاقته الجيدة مع الرئيس يدعو فريدمان إلى الاعتقاد أن أفكاره كانت ستدخل حيز التنفيذ في أقوى اقتصاد في العالم.

إلا أنه في عام 1971 كان الاقتصاد الأميركي في حالة تدهور، فقد ارتفعت نسبة البطالة وساهم التضخم بشكل أكبر في زيادة الأسعار.

علم نيكسون أنه إذا عمل بنصيحة فريدمان واتبع سياسة عدم التدخل فإن ملايين المواطنين سينتخبونه في مقابل حصولهم على وظيفة، لذا قرر وضع عتبة لأسعار المنتجات الضرورية كالنفط والإيجار، أثار ذلك سخط فريدمان، فقد كان ضبط الأسعار أسوأ الاختلالات الحكومية التي كانت يمكن

أن تحصل، لقد اعتبر أنها "سرطان يمكن أن يقوض قدرة النظام الاقتصادي على العمل".

فاز نيكسون بنسبة 60% في الانتخابات، وعمل على تقطيع جزء أكبر من أوصال مذهب فريدمان، من خلال تمريره عددًا وافرًا من القوانين التي فرضت معايير بيئية وأمنية أعلى على الصناعة، ووصف فريدمان نيكسون بأنه الرئيس الأكثر اشتراكية من بين رؤساء الولايات المتحدة في القرن العشرين.

كان فريدمان قد أسس حركة ارتكزت على المعادلة بين الرأسمالية والحرية، ورغم ذلك تبين أن الناس الأحرار لم يصوتوا للسياسيين الذين كانوا يتبعون نصيحته، بل الأسوأ من ذلك، كانت الحكومات الدكتاتورية هي الوحيدة التي أبدت استعدادًا لوضع عقيدة السوق الحرة قيد التنفيذ، لذا شق متنورو مدرسة شيكاغو طريقهم بسرعة وصولاً إلى الطغمة العسكرية في خلال فترة السبعينيات.

الحرب الإنقاذية

مع اجتياح الأرجنتين لجزر الفوكلند التي تعتبر من مخلفات الحكم البريطاني، كانت تلك الحرب هي التي منحت تاتشر الغطاء السياسي، التي كانت في حاجة إليه كي تحدث للمرة الأولى تحولاً رأسماليًّا جذريًّا في بلد ديموقراطي ليبرالي.

كبطلة حرب تحسنت أصوات تاتشر الانتخابية، وبلغت أضعاف مستويات ما كانت عليه، واستخدمت تاتشر تلك الشعبية لإطلاق الثورة المؤسساتية التي كانت مستحيلة قبل ذلك.
وعندما أضرب عمال المناجم 1984 اعتبرت تاتشر الاعتصام استمرارًا للحرب على الأرجنتين، داعية إلى اعتماد حل عنيف مماثل للمسألة، وقالت في **تصريحها الشهير:** "كان علينا أن نكافح العدو في الفوكلند، والآن علينا أن نقاتل العدو المتربص في الداخل، العملية أصعب، لكن الخطر على الحرية هو نفسه".

وهكذا مع تصنيف العمال البريطانيين كعدو من أهل البيت، أفلتت تاتشر الدولة بكامل قوتها على المضربين فانقض 8000 عنصر من شرطة مكافحة الشغب، متسببين في حوالي 007 إصابة. استخدمت تاتشر نصرها في الفوكلند وتغلبها على عمال المناجم للقيام بقفزة كبيرة إلى الأمام، فخصصت الحكومة بين 1984و1988 شركات الغاز والاتصالات والخطوط الجوية البريطانية، وباعت حصصها في شركة بريتيش بيتروليم.

كان التسخير الناجح الذي قامت به تاتشر لحرب الفوكلند هو البرهان الحاسم الأول الذي أثبت

الفصل السابع

أن برنامج مدرسة شيكاغو الاقتصادي لم يكن في حاجة إلى دكتاتورية عسكرية وغرف للتعذيب كي يفرض نفسه، فبقدر كاف من الأزمة السياسية يجتمع الشمل حولها، وبرغم ذلك كانت تاتشر لا تزال في حاجة إلى عدو كي توحد البلد، وإلى سلسلة من الأحداث تبرر استخدامها تدابير حالة الطوارئ والقمع.

انضمت بوليفيا عام 1985 إلى لائحة البلدان التي عصفت بها الديموقراطية، وقد وجد الشعب نفسه أمام فرصة لاختيار رئيس لهم من خلال إجراء انتخابات وطنية.

وفي تلك الظروف المتقلبة بلغ فيها التضخم نسبة عالية وصلت 14000.

كان التنافس بين شخصيتين معروفتين من البوليفيين هما: الدكتاتور السابق هيوغو بانزر، والرئيس المنتخب السابق فيكتور باز إستينسورو، كان فريق بانزر واثقًا من فوزه، وقبل إعلان النتائج طلب من رجل اقتصاد في جامعة هارفرد اسمه جيفري ساكس أن يساهم في تطوير خطة اقتصادية مضادة للتضخم.

ما اختلف به ساكس عن مذهب مدرسة شيكاغو هو أنه اعتقد أن سياسات السوق الحرة كانت في حاجة إلى الدعم عن طريق تخفيف الدين، وتقديم المساعدات السخية.

كانت نصيحة ساكس لبانزر صريحة: وحدها المعالجة المفاجئة للصدمة ستشفي الأزمة التي تعانيها بوليفيا من جراء التضخم.

لقد اقترح زيادة سعر النفط بعشرات الأضعاف، وإزالة قواعد خاصة بالأسعار، وبتخفيف الميزانية.

كان بانزر يتصرف وكأنه الفائز، في حين أن باز إستنسورو منافسه في السباق لم يكن قد استسلم بعد، كان قد قدم خلال الحملة الانتخابية بيانات ملموسة عن خطته في التعامل مع التضخم، كان قد انتخب رئيسًا ثلاث مرات من قبل كان آخرها 1964 قبل أن يسقطه الانقلاب.

لقد شكل باز واجهة تحول بوليفيا إلى المذهب التنموي من خلال تأميمه المناجم الضخمة، وبدئه بتوزيع الأراضي على الفلاحين الأصليين، والدفاع عن حق البوليفيين في الانتخاب.

فاز باز بالانتخابات، وأدلى بيمين القسم، وعين غونزالو سانسيز دي لوزادا المعروف في بوليفيا

بـ: غوني، عينه رئيسًا لفريق اقتصادي بالغ السرية، مؤلفًا من الحزبين، كلف بإعادة هيكلة الاقتصاد بشكل جذري.

كان غوني متأثرًا كثيرًا بفريدمان، لكن الفريق بدأ عمله انطلاقًا من المعالجة بالصدمة التي تقدم بها ساكس.

بعد سبعة عشر يومًا من الاجتماعات تسلم بدرغال وزير التخطيط مسودة برنامج المعالجة بالصدمة، وقد دعا البرنامج إلى حذف الإعانات الغذائية، وإزالة كل أنواع الرقابة على الأسعار تقريبًا، ورفع سعر النفط بحوالي 300%، وبرغم أن الحياة كانت على وشك الغلاء في بلد واقع أصلاً في الفقر، جمدت الحكومة أجور الموظفين الحكوميين عند مستوياتها المتدنية لمدة سنة.

كما طالب بضبط كبير لإنفاق الحكومة، وفتح الحدود البوليفية على مصراعيها أمام الواردات غير الخاضعة للقيود، وطالب بتحجيم الشركات التي تملكها الدولة كحافز للخصخصة.

كان لدى البوليفيين الذين اقترحوا الخطة تخوفًا كبيرًا من مواجهة الشعب البوليفي بتلك الخطة، حاول أحدهم تشجيع الباقي من خلال تشبيه أعضائه بطياري المقاتلات الذين يهاجمون العدو.

كانت الفكرة القائلة بأن تغيير السياسة يجب أن يكون كشن هجوم عسكري مفاجئ.

فاجأ باز وزرائه بالخطة الجديدة، وقرر طرحها على الشعب دفعة واحدة.

في غضون سنتين كان التضخم قد هبط بنسبة 10% وهو رقم مذهل بحسب كل المعايير، لكن انخفضت الأجور بنسبة 40%، وفي مرحلة من المراحل انخفضت بنسبة 70%.

لعبت صناعة الكوكا (الكوكايين) دورًا مهمًّا في إعادة إنعاش الاقتصاد البوليفي، والتغلب على التضخم، كانت صادرات المخدرات غير القانونية تزيد من دخل بوليفيا أكثر من جميع صادراتها القانونية مجتمعة.

لم تكن المقارنة بين بوليفيا والتشيلي عرضية، فبفضل ساكس كانت المعالجة الصدمية قد توصلت أخيرًا إلى محو عفونة الديكتاتوريات ومعتقلات الموت التي كانت تلتصق بها منذ أن أجرى فريدمان زيارته المصيرية إلى سانتياغو قبل عشرة أعوام.

الفصل الثامن

توريث الديون البغيضة

عندما انهارت الطغمة العسكرية في الأرجنتين إثر حرب جزر الفوكلند كان البلد الجديد المحرر على وشك الانفجار بفعل زرع قنبلة الدين المزعومة.

وكان شرط واشنطن للموافقة على الحكومة الجديدة تسديد الديون التي كدسها الجنرالات، وارتفعت الديون بشكل جنوني لتصل إلى 54 بليون دولار وقت انتقال الحكم، وكان ديون الأورجواي 5 بلايين دولار، والبرازيل 103 بلايين دولار.

قدمت أثناء عملية الانتقال إلى الديموقراطية طروحات مهمة، أخلاقية وقانونية، أفادت أن تلك الديون كانت بغيضة، وأنه لا يجب إجبار الشعوب التي حُررت حديثًا على دفع فواتير قامعيها وجلاديها، خاصة أن هذا الدين ذهب معظمه إلى الجيش والقوى الأمنية، وقد استخدم لتسديد ثمن الأسلحة وخراطيم المياه التي تغرق المتظاهرين ومعتقلات التعذيب المتطورة.

معظم المال الذي لم ينفق على الجيش اختفى ببساطة؛ فقد كان الفساد يتغلغل في الطغمة العسكرية الذين فضلوا الهروب من تلك الديون المتراكمة بشكل غير شرعي، اعتبروا أن المقرضين كانوا يعلمون أو المفترض بهم أن يعلموا بأن ذلك المال كان ينفق على الفساد والقمع.

صدمة الدين

كانت الديون تشكل عبئًا كبيرًا على الديموقراطيات الجديدة، لكن هذا العبء تزايد مع صدمة بول فولكر رئيس مجلس إدارة بنك الاحتياطي الفدرالي الأميركي، عندما قام بزيادة نسبة الفائدة بشكل دراماتيكي.

كان المقصود من رفع نسب الفائدة رفع قيمة المدفوعات التي تسدد الديون الأجنبية، مما استتبع طلب المزيد من القروض، وبذلك كانت دوامة الدين قد ولدت.

في الأرجنتين ارتفعت قيمة الدين الموروث عن الطغمة العسكرية -والذي كان كبيرًا في

الأصل- من 45 بليون دولار إلى 65 بليون دولار في العام 1989.

كما ارتفع دين البرازيل من 50 بليون إلى 100 بليون دولار في غضون ست سنوات، وارتفع دين نيجيريا من 9 إلى 29 بليون دولار.

لم يكن أمام الديموقراطيات الجديدة التي ضربتها الأزمة سوى اللعب وفقًا لقواعد واشنطن، وذلك انطلاقًا من عدم رغبتها في خوض حرب مع المؤسسات المقرضة المستقرة، وفي أوائل الثمانينات ازدادت قواعد واشنطن صلابة، ورد ذلك إلى أن الصدمة الناتجة عن الدين تزامنت بشكل دقيق -وليس بمعرض الصدفة- مع عصر جديد من العلاقات الشمالية الجنوبية، وهي علاقات ستحدد الدكتاتوريات أهميتها بشكل كامل، وقد شكل ذلك فجرًا من التكيف الهيكلي المعروف بعبارات أخرى بـ: "دكتاتورية الديون".

الفصل التاسع

كانت حركة التضامن العمالية في بولندا التي أسسها العامل "فاليسا" 1980 تقود إضرابات العمال ضد الاتحاد السوفيتي، ووصل عدد العمال المشاركين إلى 10 ملايين عامل.

اعتبرت موسكو أن الحركة تشكل التهديد الأكبر لإمبراطوريتها الشرقية، وما زاد من تهديد الحركة أن مبادئها كانت منافية بمجملها لمبادئ الحزب الشيوعي، فالحركة كانت تؤمن بالديموقراطية واللامركزية والمشاركة، في حين كان الحزب مستبدًا وقائمًا على المركزية والبيروقراطية.

كان أعضاء الحركة العشرة ملايين كفيلين بالتسبب في ركود الاقتصاد البولندي، وفي أيلول 1981 أصبح التضامن مستعد للانتقال إلى الخطوة التالية، اجتمع تسعمائة عامل بولندي لإحياء المؤتمر الأول للاتحاد، وتحول التضامن إلى حركة ثورية تطمح إلى السيطرة على الدولة متحصنة ببرنامج اقتصادي وسياسي بديل خاص بها.

أخافت طموحات الحركة المتزايدة موسكو وأغضبتها، وتحت الضغط القوي أعلن قائد بولندا الجنرال وويسيك جاروزلكسي تطبيق القانون العسكري في ديسمبر 1981، واخترقت الدبابات الثلوج وأحاطت بالمناجم والمعامل، وتمت محاصرة الآلاف من أعضاء الحركة، وتم إيقاف فاليسا، بينما قاتل العمال بواسطة الفؤوس والمناجل.

عملت الحركة بعد ذلك في السر لكن شعبيتها تزايدت أكثر، ونال فاليسا 1983 جائزة نوبل للسلام، لكن بقيت القيود مفروضة على تحركاته، ولم يقدر على استلام الجائزة بنفسه.

تزايدت قوى الحركة وبحلول 1988 عاود العمال البولنديون تنظيم إضرابات كبرى، ومع تدهور الاقتصاد ووصول ميخائيل غورباتشوف إلى سدة الرئاسة في موسكو في ظل نظام معتدل، استسلم الشيوعيون، وشرعوا أعمال حركة التضامن ووافقوا على إجراء انتخابات سريعة.

خسر الشيوعيون بشكل مهين، وحققت الحركة انتصارًا كبيرًا.

صدمة السلطة

كان الشيوعيون يسيئون إدارة الاقتصاد طوال عقود، ومتسببين في أضرار فادحة، وقال فاليسا في خطابه الشهير: من سوء حظنا أننا فزنا.

كان الدين قد بلغ 40 مليار دولار أمريكي، ونسبة التضخم 600%، مع وجود نقص شديد في المواد الغذائية، وازدهار السوق السوداء.

في الصيف الذى تلى انتصار الحركة في الانتخابات، كانت الحكومة مشبوبة وغير قادرة على اتخاذ القرارات، وشكلت سرعة انهيار النظام السابق والانتخابات الخاطفة بحد ذاتها سلسلة من الصدمات، ففي غضون شهور قليلة أصبح الناشطون في الحركة الذين كانوا يختبئون من الشرطة السرية مسؤولين يدفعون رواتب هؤلاء الشرطيين، وقد تعرض هؤلا لصدمة ثانية عندما علموا أنهم بالكاد يملكون المال لدفع الرواتب، وبدلاً من بناء اقتصاد ما بعد المرحلة الشيوعية الذي حلموا به بانت الحاجة إلى تجنب انهيار اقتصادي شامل، ومجاعة شعبية محتملة.

كما كان للديون الثقيلة عامل كبير في تدهور الاقتصاد، ووقعت بولندا في قبضة الخبراء الاقتصاديين الذين انتموا إلى مدرسة شيكاغو، كما هوت في قبضة صندوق النقد الدولي والخزينة الأمريكية، التي نظرت إلى المشاكل في بولندا انطلاقًا من مبدأ الصدمة.

بدأ في هذه الظروف جيفري ساكس العمل كمستشار لحركة التضامن، وكان على الحكومة أن تعتمد بادئ ذي بدء ما بات معروفًا في الصحافة البولندية بخطة ساكس.

شجعت خطة ساكس على بيع المناجم والمسافن والمصانع التابعة للدولة للقطاع الخاص، تعارضت هذه الخطوات بشكل كلي مع برنامج التضامن، إلا أن عددًا منهم بقي وفيًّا لبرنامجه.

خطوة مترددة

أعلن رئيس وزراء بولندا تادييو مازوفييكي في 12 سبتمبر 1989 تطبيق سياسة العلاج بالصدمة؛ لمعالجة الاقتصاد البولندي.

بعد مرور شهرين على قبول بولندا بالعلاج بالصدمة حصل ما قد يغير مسار التاريخ، ويرفع التجربة البولندية إلى مصاف العالمية، ففي نوفمبر 1989 تم هدم جدار برلين وسط فارح عارم، كان العالم بأسره يعيش التحولات التي شهدها البولنديون.

بات الاتحاد السوفيتي على وشك التفكك، وكان الفصل العنصري في جنوب إفريقيا يعيش أيامه الأخيرة، واستمر انهيار الأنظمة التوتاليتارية في أميركا اللاتينية وأوروبا الشرقية وآسيا، كما كانت الحروب الأهلية الطويلة تشارف على نهايتها بدءًا من ناميبيا وصولاً إلى لبنان، كانت الأنظمة القديمة تنهار في كل مكان، ويتم الاستعاضة عنها بأنظمة جديدة لم تكن معالمها قد تحددت بعد.

في خطاب لفرانسيس فوكوياما الذي كان آنذاك من صناع القرار البارزين في وزارة الخارجية الأمريكية قال: "إن انهيار الشيوعية لن يؤدي إلى نهاية هذه الأيدلوجيا أو التقاء الرأسمالية والاشتراكية، بل إلى انتصار كبير لليبرالية السياسية والاقتصادية"، ليست الأيدلوجيا هي

التي انتهت، بل هو التاريخ بحد ذاته هو الذي انتهى.

صدمة ساحة تيانانمين

في فبراير 1989 انبثقت حركة تطالب بالديموقراطية في العاصمة بكين، رافقتها مظاهرات واعتصامات حاشدة في ساحة تيانانمين، اعتبر فوكوياما الديمقراطية والإصلاحات في السوق الحرة عملية مزدوجة لا يمكن تجزئتها، إلا أن هذا ما قامت به الصين، لقد بذلت جهدها لتحرير الأجور والأسعار لتوسيع السوق، وبرغم ذلك كانت عازمة على مقاومة أي مطالبة بإجراء الانتخابات وغيرها من الحريات المدنية.

كما طالب المتظاهرون بالديموقراطية، لكن العديد منهم عارض الخطوة التي قامت بها الحكومة نحو الرأسمالية الحرة.

كانت الحكومة الصينية برئاسة دنغ كسيباوبينغ تعمل في مطلع الثمانينيات على عدم تكرار ما حدث في بولندا، كما دعت الحكومة الصينية في عام 1980 فريدمان لزيارة الصين لإعطاء الدروس لأبرز موظفي الدولة والمعلميين وخبراء الاقتصاد في الحزب حول أساسيات نظريات السوق الحرة. يعتبر النموذج التي كانت الصين تنوي اتباعه مختلفًا عن الولايات المتحدة، بل هو أقرب إلى ما كان يطبق في التشيلي في عهد بينوشي: أسواق ليبرالية، في ظل حكم استبدادي، يدعمه قمع بقبضة حديدية.

فتح دنغ في عام 1983 البلاد أمام الاستثمارات الأجنبية، وخفض الإجراءات الحامية للعمال، وأمر بتشكيل شرطة مسلحة مؤلفة من 400 ألف شرطي عبارة عن فرق متجولة لمكافحة الشغب، تولت القضاء على أشكال الجرائم الاقتصادية كافة، كالتظاهرات والإضرابات.

لقي عدد من الإصلاحات التي قام بها دنغ نجاحًا كبيرًا، إلا أنه بدأ بتطبيق إجراءات غير شعبية في نهاية الثمانينيات، ولا سيما على العمال في المدن، فرفعت الرقابة عن الأسعار مما تسبب في ارتفاعها بشكل كبير، كما تم رفع الضمانات المتعلقة بالعمل، مما أدى إلى موجة كبيرة من البطالة. واجه الحزب ردود فعل عنيفة، فاضطر إلى الرجوع عن بعض الإجراءات المتعلقة بتحرير الأسعار، غير أن تلك الإصلاحات بدت وكأنها رمز لمسؤولي الحزب الذين تحولوا إلى رجال أعمال عمالقة، واستحوذوا على عدد كبير من الأملاك التي كانوا يديرونها بشكل غير قانوني.

واجهت تلك السياسة ردود فعل عنيفة على الرغم من زيارة فريدمان للصين ومطالبته تنفيذ النظرية بقوة وصرامة.

وبعد عودته كتب رسالة إلى محرر صحيفة طلابية قائلاً: "لقد أسديت صدفة النصيحة نفسها إلى التشيلي والصين، هل سأواجه موجة عارمة من المعارضات لأنني كنت مستعدًا لإسداء النصائح إلى حكومات بهذا السوء؟"

بدأت هذه الرسالة بعد شهور قليلة تأخذ منحنى مظلمًا؛ إذ بدأت الحكومة الصينية تحاكي بعضًا من تكتيكات بينوشي البغيضة.

وظهرت الاحتجاجات التاريخية في الإعلام العالمي على أنها صدام بين طلاب معاصرين ومثاليين يريدون تطبيق النموذج الغربي للديموقراطية والحرية ومسؤولين مستبدين يريدون المحافظة على الدولة الشيوعية.

لم تكن تلك التظاهرات ضد الإصلاح الاقتصادي بحد ذاته، بل ضد طبيعة الإصلاحات التي أوحى بها فريدمان وسرعتها وقسوتها وطابعها المضاد للديموقراطية.

حملت هذه المطالبات اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي على اتخاذ قرار حاسم، وكانت الخيارات معقدة أمامه: هل يجدر بالحزب أن يكمل جدول أعماله مهما كلف الثمن، وذلك بالقضاء على المعارضين؟ أم عليه أن يستسلم أمام مطالب الشعب ويتخلى عن تفرده بالحكم ويخاطر بتراجع المشروع الاقتصادي؟

وصدر الحكم.. سوف تحمي الدولة إصلاحاتها الاقتصادية بالقضاء على المتظاهرين، وفي مايو 1989 أعلنت الحكومة الشعبية في الصين قيام الحكم العسكري، وتوغلت دبابات جيش التحرير الصيني بين المتظاهرين، وأطلقت النار عليهم بدون تفرقة.

واقتحم الجنود الباصات التي كان المتظاهرون يختبئون فيها، وانهالوا عليهم بالعصى والهروات، وقدر بعض شهود العيان أن عدد القتلى ترواح بين ألفين وسبعة آلاف، وتلت هذه الأحداث مطاردة واسعة النطاق للمنتقدين والمعارضين، وتم اعتقال ما يقارب 40 ألف، وأعدم المئات، وخصخصت الحكومة عمال المصانع الذين شكلوا التهديد الأكبر للرأسمالية الحرة.

مهدت ساحة تيانانمين الطريق أمام تحولات جذرية بدون أي خوف من التمرد، وحتى لو جارت ظروف المعيشة على العمال والفلاحين، كان عليهم أن يسكتوا ويقبلوا بذلك، أو أن يواجهوا غضب الجيش والعملاء الصينيين.

وفي ظل هذا العنف تمكن دنغ من تطبيق تغييرات ساحقة لا سابق لها.

حولت هذه الموجة من الإصلاحات الصين إلى مجرد مقر ذي سمعة عالمية للعمال ذوي الأجر المنخفضة، ما جذب الشركات متعددة الجنسيات كلها إلى الصين.

الفصل العاشر

الديموقراطية مولودة مكبلة
حرية مقيدة في جنوب إفريقيا

اتضح أن التاريخ لم ينتهِ بعد كما قال فوكوياما، كان لا يزال السكان في دولة جنوب إفريقيا يعتقدون أن الحرية تشمل حق المطالبة باستعادة المكاسب غير الشرعية التي جمعها القامعون وإعادة توزيعها.

كانت وثيقة الحرية في جنوب إفريقيا التي صوت عليها ثلاثة ألف مندوب من بينهم سود وهنود وأصحاب بشرة ملونة وقلة من البيض، وكان طلبها الأول "على الشعب أن يحكم".

كان البيض والإنجليز يسيطرون على الحكومة منذ ثلاثة عقود، وفرضوا الحظر على المؤتمر الوطني الإفريقي وغيره من الأحزاب السياسية التي كانت تحاول أن تضع حدًّا للفصل العنصري.

إلا أن انتشار وثيقة الحرية استمر رغم القمع الشديد.

في الثمانينيات ظهر جيل جديد من المناضلين الشبان، الذين بدأوا يظهرون في القرى، فاجأ هؤلاء الشبان الراديكاليون آباءهم بجرأتهم غير المعهودة؛ إذ سئموا الصبر وحسن السلوك، وعزموا على القيام بكل ما يلزم من أجل الانقلاب على هيمنة البيض، فنزلوا إلى الشوارع وهم ينشدون: "لا الرصاص ولا القنابل المسيلة للدموع ستوقفنا"، واجه المناضلون المجزرة تلو الأخرى، وكان عليهم دفن رفاقهم، إلا أنهم تابعوا التقدم وهم يغنون من أجل ميثاق الحرية.

كان الميثاق يقدس حق العمل والمسكن اللائق وحرية المعتقد، والأهم من ذلك بعد حق تقسيم ثروة أغنى بلد في القارة الإفريقية.

آمنت الفصائل كلها التي كانت تناضل في سبيل التحرير بأن الفصل العنصري لم يكن نظامًا سياسيًّا يحكم من يحق له التصويت أو التنقل بحرية فحسب، بل كان -أيضًا- نظامًا اقتصاديًّا استغل العنصرية للقيام بأعمال مربحة جدًّا؛ فقد تمكنت نخبة بيضاء صغيرة من كسب أرباح طائلة عن طريق المناجم.

في 11 فبراير 1990 خرج مانديلا من السجن حرًّا طليقًا، وبدأت الاحتفالات في مقاطعات البلاد كلها التي جددت إيمانها بأن لا شيء يمكنه وضع حد للنضال من أجل التحرير.

عندما خرج مانديلا من السجن كان بانتظاره شعب قادر على التوجه نحو الحرية بدون تعريض البلد لحرب أهلية أو انهيار اقتصادي، مع العلم بأن الاحتمالين كانا واردين.

كان السلاح الأنجح في أيدي المناضلين هو مقاطعة الشركات التي تتعامل مع دولة الفصل العنصري؛ فقد اعتبر عدد كبير من المستهلكين أن الشركات التي تستفيد من هيمنة البيض تستحق ضربة مالية.

رفض المؤتمر الوطني الإفريقي سياسة الأسواق الحرة التي كانت رائجة حينها، وتمكن مانديلا من الانتقال إلى المرحلة الثانية، بما أنه كان ثمة اتفاق على أن تتحمل الشركات جزءًا من المسؤولية على الجرائم التي ارتكبت.

قضت تلك المرحلة بأن يشرح مانديلا السبب الذي توجب تأميم القطاعات الرئيسة في جنوب إفريقيا على النحو الذي جاء في الميثاق.

جرت المحادثات حول إنهاء الفصل العنصري على محورين غالبًا ما تلاقيا، الأول كان سياسيًّا، وبطبيعة الحال تركزت الأنظار كلها على القمم العالمية بين مانديلا ودي كليرك قائد الحزب الوطني الحاكم السابق، قضت استراتيجية دي كليرك بالحفاظ على القدر المستطاع من السلطة، فلجأ إلى كل السبل الممكنة من تقسيم البلد إلى فيدراليات، ومنح حق النقض للأقليات، وتخصيص حد أدنى من المقاعد النيابية لجميع الإثنيات.

لقد حاول دي كليرك صنع المستحيل لمنع حكم الأكثرية؛ لأنه عرف أن ذلك سيؤدي إلى تجريد أصحاب الأرض من أملاكهم، وإلى تأميم الشركات.

انشغل قادة المؤتمر الوطني الإفريقي في ربح معركة السيطرة على البرلمان، وخلال ذلك فشل في حماية نفسه من استراتيجية أكثر خطورة، كانت في جوهرها عبارة عن ضمانة مبلورة ضد تحول البنود الاقتصادية في ميثاق الحرية إلى قانون في جنوب إفريقيا، وأصبحت عبارة: "على الشعب أن يحكم" حقيقة في وقت قصير، لكن المساحة التي كانوا سيحكمونها كانت تتقلص بسرعة قياسية.

أثناء المحادثات حصلت تنازلات ضخمة ورهيبة من قبل مفاوضي المؤتمر الإفريقي، وتخلوا عن إدارة المصرف المركزي، وجعلوا عليه كريس سالز الذي كان يحكم في حقبة الفصل العنصري، وأيضًا قام وزير المالية أثناء الفصل العنصري ديريك كبيس بمساومة مهمة لصالح فريقه بقي على أثرها في منصبه.

وجد المؤتمر الوطني نفسه عالقًا في شباك المفاوضات، التي كانت مصنوعة من قوانين

وأنظمة غامضة تهدف إلى الحد من سلطة القادة المنتخبين، وعندما استلمت الحكومة الحكم وأرادت أن تقدم إلى الشعب مكاسب الحرية التي صوت الناس من أجلها، لاحظت أن الخيوط أخذت تشتد حولها وتضيق عمل الإدارة، وأصبحت صلاحياتها محدودة جدًّا.

كان توزيع الأراضي مستحيلاً ففي آخر لحظة وافق المفاوضون على إضافة بند إلى الدستور يحمي الملكيات الخاصة، ما جعل الإصلاح على صعيد الأراضي مستحيلاً، حتى فرص العمل كانت مستحيلة، وكانت آلاف المعامل على وشك الإقفال؛ لأن المؤتمر الوطني الإفريقي كان قد وقع على الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفة الجمركية، ما جعل دعم المنشآت الصناعية ومعامل الأنسجة غير شرعي.

وصف أحد الناشطين القدماء ضد الفصل العنصري، الفخ الذي وقع فيه المؤتمر الوطني الإفريقي بعبارات صريحة: "لم يحررنا يومًا بالفعل، بل نزعوا القيود عن أعناقنا ولفوها حول كواهلنا".

لكن السؤال المهم هنا: ليس كيف استسلم قادة المؤتمر الوطني في الجبهة الاقتصادية، بل كيف سمحت القاعدة -أي: الشعب- التي دفعت غاليًا ثمن الحرية للقادة أن يستسلموا؟ لماذا لم يطالب الشعب المؤتمر الوطني الإفريقي بتطبيق مبادئ ميثاق الحرية ومقاومات المساومات؟

الإجابة: كان الجميع مأخوذًا بالمفاوضات السياسية، ولو شعر الناس بوجود خطب ما لكانوا قاموا بتحركات شعبية تندد بذلك، إلا أنهم اعتبروا تقارير المفاوضين الاقتصاديين تقنية، ولم تثر اهتمامهم.

حاول الحزب في السنتين الأوليين لحكم المؤتمر الوطني، استخدام الموارد المحدودة ليفي بوعد إعادة التوزيع الذي قطعه، إلا أن التاريخ كان يعيد نفسه، ولا سيما مع بدء الحكومة برفع الأسعار تحت وطأة الدين والضغوط الدولية لخصخصة تلك الخدمات.

وبعد مرور عقد من حكم المؤتمر الوطني قطعت المياه والكهرباء عن ملايين الأشخاص؛ لأنهم كانوا عاجزين عن تسديد الفواتير، أما بالنسبة للمصارف والمناجم والمصانع الكبرى التي تعهد مانديلا بتأميمها فقد بقيت في أيدي أربع تكتلات عملاقة تعود إلى البيض، وتتحكم في 08% من سوق الأوراق المالية، ولم يكن السود يديرون أو يملكون سوى 4% من الشركات المسجلة في الأوراق المالية، وكان البيض لا يزالون يحتكرون 70% من الأراضي في العام 2006.

اقتنع المؤتمر الوطني بأن أمل البلاد الوحيد يكمن في جذب المستثمرين الأجانب، وكان عليه أن يغير سلوكه كي تصبح البلاد جذابة بالنسبة للمستثمرين.

كان تابو مبيكي الذراع اليمنى لمانديلا أثناء توليه الرئاسة، مقتنعًا بأن السبيل إلى تهدئة السوق كان من خلال تأسيس المؤتمر الوطني لهذه الثقة، ويشرح مبيكي الأمر قائلاً: "إن وحش السوق قد أفلت، ويستحيل ترويضه، ويجب إطعامه ما يشتهيه، النمو والمزيد من النمو".

نظم المؤتمر الوطني فريقًا أقسم على السرية المطلقة من أجل وضع خطة للعلاج بالصدمة، وقد تمثلت في برنامج ليبرالي جديد للمعالجة بالصدمة ظهر في يونيو 1996 يدعو إلى المزيد من الخصخصة والتخفيض من إنفاق الحكومة، بالإضافة إلى مرونة في العمل، وتجارة أكثر تحررًا، ورقابة أقل على تدفق الأموال.

بعد مرور أكثر من عقد على اتخاذ جنوب إفريقيا قرارًا بتوجهها نحو التاتشرية أتت العواقب كارثية، وتضاعف عدد الأشخاص الذين يتقاضون أقل من دولار واحد في اليوم، وازدادت نسبة البطالة بين السود، وطرد ما يقارب المليون شخص من المزارع.

إن أكثر الحجج إقناعًا بضرورة التخلي عن الوعود بإعادة التوزيع في نهاية الأمر، كان الأقل توقعًا وهو: الجميع يقوم بذلك.

وتلخصت الرسالة التي كانت قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي تتلقاها منذ البداية من الحكومات الغربية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي: "لقد تغير العالم، ولم يعد أي من الأفكار اليسارية ذات قيمة الآن، هذه هي قواعد اللعبة الجديد".

الفصل الحادي عشر

شعلة الديموقراطية الفتية
روسيا تعتمد خيار بينوشي

قاد غورباتشيف في بداية التسعينيات روسيا إلى عملية ديموقراطية لافتة من خلال سياسته المزدوجة القائمة على الانفتاح وإعادة الهيكلة، وبالتالي أصبحت الصحافة حرة، وتم انتخاب البرلمان والمجالس المحلية والرئيس ونائب الرئيس، وأصبحت المحكمة الدستورية مستقلة.

أما على الصعيد الاقتصادي، فاتجه غورباتشيف نحو مزيج من الأسواق الحرة، وشبكة أمن قوية، ومفاتيح صناعية رئيسية تسيطر عليها الحكومة.

كان الغرب في البداية متحمسًا لنجاح غورباتشيف، لكن اجتماع مجموعة السبع 1991 حمل مفاجأة غير سارة، فقد أجمع رؤساء الدول على توجيه رسالة واحدة إلى غورباتشيف: "إن لم يعتمد علاجًا اقتصاديًّا بالصدمة، يكون فوريًّا وراديكاليًّا، وأنهم سوف يقطعون الحبل ويتركونه يقع".

اختفى غورباتشيف بظهور يلتسن، وتم تطبيق العلاج بالصدمة في روسيا وسط أجواء مضطربة. لقد أجبرت روسيا تمامًا كالصين على الاختيار بين مدرسة شيكاغو الاقتصادية وثورة ديموقراطية حقيقية، وأمام هذين الخيارين هاجم قادة الصين الشعب خوفًا من أن تحبط الديموقراطية السوق الحرة، أما روسيا فكانت مختلفة، فكانت الثورة الديموقراطية قد بدأت بالفعل، لذا وجب من أجل التقدم في برنامج مدرسة شيكاغو الاقتصادي إيقاف عملية غورباتشيف السلمية فورًا، والعودة عنها بشكل ردايكالي.

جمع يلتسن على الفور فريقًا من الخبراء الاقتصاديين؛ لقراءة النصوص التي وضعها مفكرو مدرسة شيكاغو، والتحدث عن تطبيق نظرياتها في روسيا، وكان الفريق مخلصًا لفريدمان إلى حد أن الصحافة الروسية أطلقت عليهم اسم تلامذة شيكاغو.

كانت سياسة الفريق واضحة، وتقضي باستقرار مالي صارم بحسب إملاءات العلاج بالصدمة، وأمنت الحكومة الأميركية دعمًا أيديولوجيًّا وتقنيًّا لتلامذة شيكاغو.

انتظر الإصلاحيون أسبوعًا واحدًا فقط بعد استقالة غورباتشيف لإطلاق برنامج العلاج بالصدمة، الذي يشكل ثانية الصدمات الثلاث، وقد شمل البرنامج -أيضًا- سياسات التجارة الحرة والمرحلة

الأولى من خصخصة الشركات التابعة للدولة.

كانت وعود يلتسن وعودًا جامحة؛ إذ توقع أن تستمر الأمور بالتدهور لمدة ست شهور تقريبًا قبل أن يبدأ النهوض، وتتحول روسيا في وقت قريب إلى عملاق اقتصادي.

لكن بعد مرور سنة واحدة اتخذ العلاج بالصدمة أبعادًا كارثية، وفقد ملايين الروس من الطبقة المتوسطة مدخراتهم مع تدهور العملة، وانقطاع الرواتب عن ملايين العمال لشهور عدة، وبات ثلث السكان يعيشون تحت خط الفقر.

استعاد الروس تحركهم وبدءوا يطالبون بوضع حد لهذه المغامرة الاقتصادية السادية، ورأى البرلمان أنه حان الوقت للسيطرة على الرئيس وفريقه، وصوتوا على استعادة الامتيازات التي منحوها ليلتسين، وبات يجب مرور القوانين على البرلمان قبل سنها، لكن يلتسين سارع بإعلان حالة الطوارئ ما أعاد إليه امتيازاته، لكن بعد 3 سنوات قضت المحكمة الدستورية الروسية بأن يلتسين استغل سلطته لخرق الدستور الذي أقسم على الحفاظ عليه.

أصبح المساران متداخلين، وبات يلتسين ومطبقو العلاج بالصدمة في مواجهة مباشرة مع البرلمان والدستور، واصطف الإعلام الغربي في صف يلتسين، وبذل جهده لدعمه، وأقيل أعضاء البرلمان بعد أن اتهموا بأنهم متشددون شيوعيون يحاولون ردع الإصلاحات الاقتصادية.

أعلن يلتسين إلغاء الدستور وإقالة البرلمان، فعقد البرلمان جلسة استثنائية بعد يومين، وصوت على قانون لردع يلتسين عن تنفيذ مخططه الجهنمي، وأصبح النزاع المسلح بين يلتسين والبرلمان حتميًّا، واستمر كلينتون بدعم يلتسين، وقدم إليه الكونجرس مساعدة قدرها 5،2مليار دولار برغم أن المحكمة الدستورية الروسية حكمت مرة أخرى بأن سلوك الرئيس غير دستوري، أرسل يلتسين فرقًا عسكرية لمحاصرة البرلمان، وأمر بقطع الكهرباء ووسائل التدفئة والخطوط الهاتفية عن المبنى.

أتى الآلاف من مؤيدي الديموقراطية محاولين رفع الحصار، واستمرت المظاهرات السلمية أسبوعين بمواجهة الجيش والشرطة ما أدى إلى رفع الحصار جزئيًّا عن المبنى؛ ليتمكن الناس من إدخال الطعام والماء، وازدادت المقاومة السلمية شعبية، وبدأت تحصد مزيدًا من الدعم.

لكن يلتسين قرر إنهاء الأمر، وأطلق سلسلة من الأحداث العنيفة، وأمر الجيش بالهجوم على البرلمان، وإضرام النار فيه.

في صباح 4 أكتوبر 1993 طوقت الدبابات والمدرعات مبنى البرلمان، ورموه بالمتفجرات، بينما أطلقت فرق المشاة أسلحتها النارية، لتسفر المعركة في النهاية عن مقتل حوالي 500 شخص، وجرح حوالي 1000.



بقيت روسيا تحت حكم دكتاتوري بدون أي رقابة بعد الانقلاب، ولا سيما بعد أن حلت هيئاتها المنتخبة، وعُلقت المحكمة الدستورية، وألغي الدستور، وانتشرت الدبابات في الشوارع، وفرض حظر التجوال، وواجهت الصحافة رقابة شديدة، مع العلم بأن الحريات المدنية أعيدت إلى الشعب بعد مدة قصيرة.

حين كانت البلاد لا تزال تترنح من أثر الانقلاب تقدم فريق شيكاغو الخاص بيلتسين في تطبيق الإجراءات المثيرة للجدل في برنامجه، كإجراء تخفيضات ضخمة في الموازنة، ورفع الرقابة عن أسعار المواد الغذائية الأساسية بما فيها الخبز، بالإضافة إلى خصخصة سريعة.

كان يفترض نظريًّا بهذا الكر والفر أن يجلبا الازدهار الاقتصادي الذي سينتشل روسيا من الهوة، لكن عمليًّا تم استبدال الدولة الشيوعية بدولة شركات، استفاد من ازدهارها عدد ضئيل من الروس، معظمهم كان من المسؤولين الشيوعيون السابقين.

تدنت شعبية يلتسين للغاية، فقام بما كان عدد كبير من القادة الفاقدين للأمل قد فعلوه للمحافظة على السلطة، كان بحاجة إلى حرب ينتصر فيها كي تنقذ شعبيته، فاجتاح الشيشان 4991، وبدا لبرهة وكأنه قد نجح بسيطرته على القصر الرئاسي المهجور في غروزني.

إلا أنه اتضح أن هذا الانتصار كان قصير الأمد بالنسبة إلى كل من الشيشان وموسكو، تدنت شعبيته أكثر، وبدا أنه على وشك السقوط في انتخابات 1996، لكن دعم رجال الأعمال له والذي بلغ 100 مليون دولار نجحوا في إنقاذه من السقوط.

حدثت عمليات بيع لشركات حكومية بأسعار توازي أعشار أسعارها العادلة، لكن الفضيحة الأكبر أن هذه الممتلكات كان يتم شراؤها بالمال العام.

وفي عملية التعاون الضخمة بين السياسيين الذين باعوا الشركات الرسمية، ورجال الأعمال الذين اشتروها، نقل عدد من وزراء يلتسين مبالغ طائلة من الأموال العامة، كان بإمكانها تغذية المصرف المركزي أو الخزينة، إلى مصارف خاصة، وتعاقدت الدولة بالتالي مع المصارف عينها لإجراء المزادات الضخمة من أجل خصخصة حقول النفط والمناجم.

نظمت المصارف المزادات العلنية، وشاركت -أيضًا- في عملية الشراء، وقررت أن تصبح المالك الجديد لأملاك روسيا، ومن المرجح أن تكون تلك الأموال التي كرستها المصارف من أجل شراء أسهم في الشركات العامة هي نفسها الأموال التي أودعها وزراء يلتسين في تلك المصارف، بتعبير آخر: شكل الشعب الروسي تغطية للأموال التي كانت تختلس من بلاده.

جمعت ثروات كبيرة في روسيا في تلك الفترة، وانتهى المطاف بعدد من نواب يلتسين ووزرائه

بفقدان مناصبهم بسبب فضائح الفساد.

يشير هذا الواقع إلى مسألة مزعجة ومهمة تتعلق بالمؤمنين بأيديولوجيا السوق الحرة: هل هم مؤمنون حقيقون تقول لهم عقيدتهم: إن الأسواق الحرة تعالج التخفف كما يتم التأكيد في أغلب الأحيان؟ أم أن أفكارهم ونظرياتهم لم تكن سوى حجة منطقية تبرر الجشع اللامحدود الذي كانوا يخفونه بادعائهم أن دوافعهم غيرية؟

في النهاية تبدى أن علوم مدرسة شيكاغو الاقتصادية كانت تؤدي إلى الفساد بشكل خاص، فعندما يقتنع المرء بأن الربح والجشع اللذين يمارسان على نطاق جماعي يجلبان الربح الأكبر للمجتمع، يصبح أي عمل يهدف إلى الإثراء الشخصي مبررًا، على أنه مساهمة خلاقة ومفيدة للرأسمالية، حتى لو اقتصرت هذه الاستفادة على المرء وزملائه.

حين يراودك الشك لما الفساد؟

يفاجأ المرء عند قراءة التقارير الغربية حول العلاج بالصدمة في روسيا، لملاحظته مدى تقارب الأحاديث في ذلك الوقت وأحاديث أخرى ستجري بشأن العراق في وقت لاحق.

لطالما صورت إدارة بوش العراق على أنه في طريق الحرية، حتى لو كان هذا البلد يعيش حقيقة صارخة عنوانها: ممارسات التعذيب وفرق الموت الفاقدة للسيطرة، والرقابة الصحفية المتشددة.
لطالما اعتبر البرنامج الاقتصادي في روسيا على أنه إصلاح تمامًا كما يعتبر العراق اليوم في مرحلة إعادة إعمار، حتى بعد أن غادره المقاولون الأمريكيون جميعهم تاركين البنية التحتية ركامًا في ظل استمرار التدمير.

في منتصف التسعينيات كان كل من يتجرأ في روسيا على التشكيك بحملة الإصلاحيين يعتبر ستالينيًّا، وجهت إلى منتقدي الاحتلال الأمريكي في العراق تهمة تفضيلهم العيش تحت حكم صدام.



الفصل الثاني عشر

روسيا وحقبة الرأسمالية الفظة الجديدة

في لقائي مع ساكس الخبير الاقتصادي شدد أن الفشل الحقيقي في روسيا كان السبب فيه مزاج واشنطن السياسي، واسترجع حديثًا أجراه مع لورنس إيغلبرغر الذي كان وزير خارجية الولايات المتحدة، قال: "لو سمح لروسيا بالغوص أكثر في الفوضى الاقتصادية، لكانت ستولد قوى لن يتمكن أحد من السيطرة عليها، كالمجاعة الكاسحة، وعودة النزعات القومية، أو حتى الفاشية، ولم تكن هذه خطوة حكيمة، ولا سيما في بلد يمتلك قوة نووية".

كان ذلك عام 1992 التي سيتغلب فيها بيل كلينتون على بوش الأب في انتخابات الرئاسة، واعتمد جوهر حملة كلينتون على إهمال بوش الصعوبات الاقتصادية في الداخل؛ سعيًا وراء المجد في الخارج.

يظن ساكس أن روسيا وقعت ضحية هذه المعركة، لكنه أضاف عاملاً آخر هو أن عددًا من قوى واشنطن كان لا يزال يخوض الحرب الباردة، واعتبرت هذه القوى الانهيار الاقتصادي في روسيا انتصارًا جيوسياسيًّا للولايات المتحدة، والانتصار النهائي الذي سيؤكد فوقيتها وزعامتها.

تناولت الخطابات السياسية في معظم بلدان الديموقراطيات الغربية بحلول عام 1995 جدران الدين والانهيارات الاقتصادية الوشيكة التي تتطلب المزيد من التخفيضات ومن الخصخصة، ولا سيما أن الأدمغة المفكرة الفريدمانية كانت تنذر بوقوع أزمات.

سرت الشائعات لأعوام بأن المؤسسات المالية الدولية كانت تمارس فن الأزمات الوهمية ببراعة، من أجل إخضاع البلدان لإرادتها، أما الشهادة الأكثر شمولية فأدلى بها دايفد بودو -وهو موظف في النقد الدولي- اتهم المؤسسة بالتخطيط من أجل القضاء على اقتصادات البلدان الفقيرة التي تتمتع بقوة الإرادة.

اتهم بودو المؤسسة باستخدام الإحصاءات كأسلحة فتاكة، فهو كان متورطًا في ممارسة إحصائية سيئة، هدفت إلى تضخيم الأرقام الواردة في صندوق النقد الدولي في ما تعلق بدولة ترينداد وتوباغو الغنية بالنفط، وقال: إن صندوق النقد الدولي قام بمضاعفة أرقام في إحصائيات مهمة تقيس كلفة العمل في البلد، ما جعله يبدو كأنه غير منتج إلى حد كبير، برغم أن المؤسسة

كانت تملك الأرقام الصحيحة، ويقول بودو في مثال آخر: "إن المؤسسة اختلقت من لا شيء دينًا حكوميًّا غير مسدد ذا حجم هائل".

ما حدث في ترينداد وتوباغو كان في غاية الخطورة؛ فبناء على تقرير المؤسسة والتي تبنتها الأسواق المالية اعتبرت البلاد في خطر، وتوقفت عن تمويلها، وهبطت أسعار النفط مؤدية إلى عملية التصدير الأولى، وتحولت مشاكل البلد الاقتصادية إلى كارثة، واضطرت إلى التوسل لصندوق النقد لمد يد العون، فطالبته المؤسسة المالية بالقبول بما سماه بودو: الدواء الفتاك، أي: **صرف الموظفين وتخفيض الأجور، وسلسلة لا تنتهي من السياسات التصحيحية.**

وصف بودو تلك العملية بأنها إعاقة متعمدة للخط الحيوي في البلد من خلال اختلاق الذرائع، وذلك من أجل رؤية ترينداد وتوباغو تتحطم اقتصاديًّا أولاً وتتحول ثانيًا.

بعد نشر بودو تلك الاتهامات قامت حكومة ترينداد وتوباغو بعمل دراستين مستقلتين للتحقق من الاتهامات، فتبين أنها كانت صحيحة، لقد ضخم صندوق النقد الدولي الأرقام واخترعها متسببًا بأضرار فادحة.

الفصل الثالث عشر

اختلاس آسيا وسقوط ثان لجدار برلين

كانت بلدان جنوب شرق آسيا في 1997 الأكثر عرضة لنظريات التآمر، ولوقوعها كبش محرقة للتناحرات الإثنية، ولا سيما أنه لم يكن هناك ظاهريًّا سبب منطقي وراء الأزمة المالية، وكانت وسائل الإعلام والمحللون يشيرون إلى المنطقة كأنها التقطت عدوى غامضة وخطرة، فقد تم وصم انهيار الأسواق فورًا بالإنفلونزا الآسيوية التي تأزمت لدى انتقالها إلى أميركا اللاتينية وروسيا فاتخذت اسم العدوى الآسيوية.

كانت هذه البلدان قبل أسابيع قليلة من تدهور الأمور فيها نموذجًا للصحة والرشاقة الاقتصادية، وقد عرفت بالنمور الآسيوية، أنجح تجارب العولمة، وهي لم تتأثر بحرب أو كارثة طبيعية، كما أنها لم تعان عجزًا كبيرًا، وبعضها لم يعان أي عجز حتى، فيكيف يمكن تفسير الضربات النقدية التي تعرضت لها تلك البلاد؟

اتضح في ما بعد أن هذه البلدان وقعت ضحية ذعر أصبح فتاكًا مع سرعة الأسواق المعولمة وتقبلها، بدا كل شيء بإشاعة تقول: إن تايلاند لم تكن تملك ما يكفيها من الدولارات كي تدعم عملتها، وحول هذا القطيع الالكتروني الإشاعة إلى عاصفة هوجاء طالبت المصارف بقروضها، وتوقف البناء في السوق العقارية، وكثرت ناطحات السحاب والمراكز التجارية والمنتجعات السياحية غير المكتملة.

كان ممكنًا لهذه الأزمة أن تتوقف لو أننا كنا في عصر رأسمالية أقل سرعة، لكن سماسرة الصناديق التعاونية تعاملوا مع النمور الآسيوية ككيان استثماري واحد، لذا حين وقع أحدها لحقت به الأخرى. العامل الوحيد الذي كان يمكنه أن ينقذ البلاد هو نفسه الذي أنقذ المكسيك أثناء أزمة التكيلا 1994، أي: قرض سريع، لكن آسيا تلقت موجة مفاجئة من الضربات وجهتها المؤسسات المالية: "لا تساعدوا آسيا".

كان النجاح الباهر للنمور الآسيوية أشبه بمعجزة اقتصادية، وذلك بسبب تشريعها أبوابها أمام العولمة بدون أي قيد أو شرط، كانت ماليزيا وكوريا الجنوبية وتايلاند تتبع سياسات حمائية صارمة تمنع الأجانب تملك الأراضي أو شراء المصانع المحلية، وكانت الدولة لا تزال تتمتع بدور كبير في

تلك البلدان، مبقية قطاعات كالطاقة والنقل في يدي الحكومة.

استاءت المصارف الاستثمارية والشركات المتعددة الجنسيات الغربية واليابانية من ازدهار سوق آسيا الاقتصادية، وأبدت تلك المؤسسات رغبتها في شراء أكبر شركات النمور الاقتصادية، وبخاصة تكتلات كوريا كـ: **دايو وهيونداي وسامسونغ وإل جي.**

وافقت الحكومات الآسيوية على حل وسط في منتصف التسعينيات، وتحت ضغط صندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية: يمكنها أن تبقي القوانين التي تحمي المؤسسات المحلية من التملك الأجنبي والخصخصة، لكن سيكون عليها مقابل ذلك أن ترفع الحواجز عن قطاعاتها المالية، ما سيتيح قيام موجة من الاستثمارات واتجارًا بالعملة.

رأى البعض في انهيار آسيا حدثًا عظيمًا، كما رحب خوسي بينييرا الوزير المفضل لدى بينوشي بهذا الانهيار قائلاً: "إن سقوط النمور الآسيوية ليس سوى سقوط لجدار برلين ثان، وسقوط للفكرة القائلة: إنه ما من حل وسط بين الرأسمالية الديموقراطية والأسواق الحرة والاشتراكية الحكومية".
وقعت تلك الدول تحت سطوة صندوق النقد الدولي، كانت النمور محطمة ومحبطة؛ نظرًا لفراغ خزينتها، فباتت جاهزة لولادة جديدة، وقضت المرحلة الأولى من العملية بتجريد البلدان من الحماية الاستثمارية والتجارية، والتدخل الناشط للدولة التي شكلت مفتاح المعجزة الآسيوية، وطلب صندوق النقد الدولي من تلك الحكومات إجراء تخفيضات كبيرة على ميزانياتها، ما أدى إلى موجة بطالة بين عمال القطاع العام.

عانت تلك الدول من احتجاجات عمالية بسبب موجة البطالة الهائلة التي عصفت بها، مما اضطر كوريا مثلاً لاستخدام القمع، ومع انتشار الفقر بصورة رهيبة باعت عائلات ريفية كثيرة في الفلبين وكوريا الجنوبية بناتهن لتجار الرق للعمل في الدعارة.

وخلال تلك الفترة تم بيع عدد كبير من الشركات الكورية لمستثمرين أجانب، كما أجبرت الأزمة الحكومات على بيع الخدمات العامة بغية زيادة رصيدها المتقلص.

حصل في الإجمال في غضون 20 **شهرًا** 186 عملية دمج واستيلاء في إندونيسيا وتايلاند وكوريا الجنوبية وماليزيا والفلبين من قبل شركات متعددة الجنسيات.

الفصل الرابع عشر

العلاج بالصدمة في الولايات المتحدة
فقاعة الأمن في الوطن

حين تولى دونالد رامسفيلد وزارة الدفاع الأمريكية، تناول فكرة خصخصة الخدمات في وزارة الدفاع الأمريكية.

وقال: إن وزارة الدفاع يجب أن تركز في مجال كفاءاتها، أي: الحرب، لكن في ما غير ذلك، يمكن البحث عن ممولين يستطيعون تأمين القيام بالأعمال غير الأساسية بشكل فعال ومضمون، مثل: الرعاية الصحية للجنود، وبناء منازلهم، وخلافه.

كانت مصادفة تاريخية غريبة أن تعلن نشرة الأخبار على محطة ال سي إن إن في العاشر من أيلول/سبتمبر ضمن تقرير قصير حمل عنوان: وزير الدفاع يعلن الحرب على بيروقراطية البنتاغون، لتعود فتنقل في الصباح التالي خبر الهجوم الحقيقي على البنتاغون، وقع ضحية هذا الحادث 125 من الموظفين، بينما أصيب أكثر من 110 بجروح خطرة، كان القتلى والجرحى من الأشخاص الذين اعتبرهم الوزير منذ أقل من 24 ساعة أعداء للدولة.

كانت تلك الفكرة قد انطلقت في أواخر التسعينيات، وأوشكت على خرق المحرمات المتمثلة في عدم خصخصة الوظائف الجوهرية، أعادت هذه الحركة إحياء عقيدة الصدمة، واستغلت الكوارث والأزمات بغية التقدم في خطط الخصخصة الراديكالية.

الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وعودة الخدمة المدنية

إن أعدنا النظر في ما حدث من فترة الضياع الجماعي بعد هجمات 11 سبتمبر نجد أنه كان نوعًا محليًّا من المعالجة بالصدمة الاقتصادية، فسرعان ما انتقل فريق بوش المعتمد المنهجية الفريدمانية إلى استغلال الصدمة التي ضربت الأمة للمضي برؤيته الراديكالية لحكومة فارغة يكون كل شيء فيها من خوض الحروب إلى الاستجابة للكوارث، مجرد مجازفة لجني الأرباح.

كان هذا تطورًا جريئًا للعلاج بالصدمة، وبدا من مقاربة التسعينيات التي قضت ببيع الشركات العامة الموجودة، استحدث فريق عمل بوش إطارًا جديدًا لنشاطاته، وهو الحرب ضد الإرهاب، وتطلب **هذا الإنجاز مرحلتين:**

أولاً: استخدم البيت الأبيض شعور الخطر المهيمن بعد هجمات 11 سبتمبر لزيادة قدرات القسم التنفيذي على الضبط والمراقبة والاعتقال وخوض الحروب بشكل دراماتيكي، ثانيًا: تلزيم وظائف الأمن والاحتلال وإعادة الإعمار فورًا، فنقلت موارد خارجية ووضعت في يدي القطاع الخاص ليؤديها ويجني الأرباح منها.

وبرغم الادعاء المعلن بأن الهدف هو محاربة الإرهاب نتج عن ذلك ظهور وحدة رأسمالية الكوارث، أي: نظام اقتصادي كامل جديد في الأمن القومي، والحرب المخصخصة، وإعادة الإعمار بعد الكوارث، مهمته فقط بناء دولة أمنية مخصخصة في الداخل والخارج.



الفصل الخامس عشر

الدولة الشركاتية
إزالة الباب الدوار ووضع مدخل عقدي

ينتمي مهندسو الحرب على الإرهاب لاعتبارهم من أوائل المستفيدين من الكوارث إلى نوع من الرأسماليين، يختلف عن أسلافهم من سياسي الشركات: نوع تشكل له الحروب وغيرها من الكوارث هدفًا بحد ذاته.

فالكوارث هي التي تزيد من أرباح تلك الشركات، الحروب والأوبئة والكوارث الطبيعية ونقص الموارد، وقد ازدادت ثرواتهم بشكل خاص منذ أن تسلم بوش زمام السلطة، وكان رامسفيلد يمتلك أسهمًا عديدة في تلك الشركات هو وتشيني وغيرهم من الساسة.

كان هناك ما يطلق عليه الباب الدوار بين الحكومة والصناعة، وهو لطالما كان موجودًا بيد أنه في أكثر الأحيان كانت الشخصيات تنتظر نهاية ولاية إدارتها قبل أن تحاول الاستفادة من علاقاتها الحكومية، لكن في عهد بوش بدأ ازدهار سوق الأمن القومي المستمر مغريًا جدًّا، فلم يستطع المسؤولون الحكوميون أن يقاوموه، وبدلاً من الانتظار حتى نهاية ولايتهم سعى مئات المسؤولين في الوكالات الحكومية العليا إلى الانتقال إلى سوق الأمن.

ولقد كان تمسك رامسفيلد وتشيني برفضهما الاختيار بين أملاكهما المتعلقة بالكوارث وواجبهم العام، كان إشارة أولى من بين إشارات عديدة إلى حلول دولة شركاتية أصيلة.

الفصل السادس عشر

محو العراق
بحثًا عن نموذج للشرق الأوسط

أثناء زيارتي إلى بغداد مارس 2004 تحدث إليّ هناك أحد النشطاء الأيرلنديين قائلاً: **"لا أحد هنا يهتم بالخصخصة؛ جل ما يهم الناس هو البقاء على قيد الحياة"**.

كان العراقيون يخشون انفجار قنبلة في جوامعهم، أو منهمكين في إيجاد قريب لهم اختفى في سجن أبي غريب الخاضع لإدارة الولايات المتحدة، كانوا يفكرون كيف سيحصلون على مياه للشرب والاستحمام، وليس في ما إذا كانت شركة أجنبية ستخصص شبكة مياههم لتعود فتبيعها لهم بعد سنة.

كان مهندسو الغزو من أشد المؤمنين بعقيدة الصدمة، وعمدوا إلى بيع العراق في المزاد العلني بتكتم، والإعلان بعدها عن نجاح الصفقة، بينما يكون العراقيون منشغلين في تلبية حاجاتهم اليومية.

سوق لغزو العراق على أساس الخوف من أسلحة الدمار الشامل، أما السبب الأسمى المفضل لدى مقترحي الحرب الأكثر تعقيدًا، فهو نظرية النموذج، فبحسب أصحاب هذه النظرية أتى الإرهاب من عدة مواقع في العالمين العربي والإسلامي من السعودية ومصر ولبنان وغيرها.

لقد تساءلوا عن أسباب الإرهاب في هذا الجزء من العالم؟ وبما أنهم كانوا معميين أيديولوجيًّا بحيث لم يتمكنوا من اعتبار السياسات الأمريكية أو الإسرائيلية عوامل مساهمة، إن لم نقل استفزازية، حددوا السبب الحقيقي على أنه: نقص في ديموقراطية السوق الحرة في المنطقة.

استحال احتلال العالم العربي كله في آن واحد، كان يجب اختيار دولة تلعب دور المحفز، فتغزوها الولايات المتحدة وتحولها إلى نموذج جديد في قلب العالم العربي المسلم، وكان من شأن هذا النموذج بحسب النظرية أن يولد سلسلة من أمواج الديموقراطية والليبرالية الجديدة في أرجاء المنطقة، أو كما وصفها أحد مستشاري بوش: "حرب لإعادة تشكيل العالم".

زيادة الخوف

مع اقتراب يوم غزو العراق تم تجنيد وسائل الإعلام الأمريكية من قبل البنتاغون لزيادة الخوف، عبر بث تقارير عن الهجمات الجوية المدمرة الكفيلة بترك جنود صدام غير قادرين على المحاربة أو غير راغبين فيها، كما تم عرض لبعض القنابل المخيفة والتي تسبب فطرًا يشبه ما يسببه الانفجار النووي، كما تعرف المشاهدون إلى هارلي أولمان أحد واضعي استراتيجية الصدمة والدهشة الذي شرح أن هذا الأثر الشبيه نوعًا ما بالأسلحة النووية لا يستغرق أيامًا أو أسابيع بل دقائق.

كانت أمريكا تلوح للعراقيين بتلك الأسلحة كما يفعل الجلادون بالمساجين في غرف الاستجواب، إن الهدف هو إظهار قدرات الائتلاف وإيضاحها، بحيث تشكل رادعًا هائلاً للجيش العراقي.

أخضع سكان بغداد عند بدء الحرب لحرمان حسي جماعي، وقصفت وزارة الاتصالات، ما قطع ملايين الشبكات الهاتفية عبر المدينة، ما منع عائلات بغداد أن تلتقط أي إرسال لمعرفة ما كان يحدث في العالم الخارجي.

يقول العراقيون: إن تعطيل شبكة الهاتف كان الجزء الأكثر رعبًا في الهجوم الجوي، فسماع القنابل والشعور بسقوطها في ظل عدم إمكانية الاتصال بالأقرباء على الأقل لمعرفة ما إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة أو لطمأنة الأهل في الخارج، كان عذابًا صرفًا.

عناصر الراحة

تبدأ المرحلة الأولى في الاستجوابات القاسية لجعل المعتقل يتكلم، بتجريده من أي عناصر تذكره بنفسه، أو ما يسمى عناصر الراحة، وهي أغراض لها قيمة خاصة لدى المعتقل كالقرآن أو صورة شخص عزيز.

خضع العراقيون لهذه العملية بشكل جماعي، بينما أخذوا يشاهدون نهب متاحفهم وآثارهم، بل ونهب سجلات المجتمع الإنساني الأول.

حتى المكتبة الوطنية التي كانت تحوي كل كتاب وأطروحة نشرت في العراق تحول إلى مبنى محترق ومدمر.

فسر أحد علماء الآثار في جامعة شيكاغو العملية بجراحة فص الدماغ؛ إذ "أزيلت الذاكرة العميقة لثقافة برمتها، ثقافة استمرت لآلاف السنين"، أو كما قالت سيدة عراقية: "بغداد هي أم الثقافة العربية، وهم يريدون القضاء على ثقافتنا".



الفصل السابع عشر

الانفجار الارتدادي للأيديولوجيا
كارثة رأسمالية بكل ما للكلمة من معنى

كان مطلوبًا أن يصبح العراق حقلاً للتجارب تمامًا كما كانت حال روسيا في التسعينيات، لكن هذه المرة يجب أن تكون الشركات الأمريكية وليس الشركات المحلية أو الأوروبية أو الروسية أو الصينية هي المنافسة. فالشركات الأمريكية هي من يحجز المكان الأول في رحلة السعي وراء الملايين السهلة.

كان المسؤول عن الأوضاع حينها هو بول بريمر حيث كان يتلقى نصوص القوانين التجارية والاستثمارية عن طريق البريد الالكتروني من وزارة الدفاع الأمريكية، ليقوم بطبعها والتوقيع عليها وفرضها كأمر واقع على كل الشعب العراقي، كانت مهمته "الرأسمالية الكارثية".

كانت مشاركة بريمر الطليعية في التعاطي مع المسائل الأمنية في بلده الأم حيث كان يعمل في شركة تقدم خدمات شاملة في مكافحة الإرهاب، كانت بمثابة تحضير مثالي لعمله في العراق، والسبب أن إدارة بوش استخدمت معادلة لإعادة بناء العراق كتلك التي استخدمتها بشكل ريادي في تعاطيها مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لقد تعاملت مع عراق ما بعد الحرب على أنه مصدر أرباح استثمارية.

صدرت القوانين الاقتصادية الجديدة وبهدف جذب المستثمرين الأجانب كي يشاركوا في مزاد الخصخصة، وينشئوا مصانع جديدة، وأسواق البيع بالتجزئة التي كان يحتاج إليها العراق.

قام بريمر بتفعيل مجموعة من القوانين الجذرية التي يحلم بها المستثمرون، وسمح واحد من القوانين بتخفيض معدل الضرائب من حوالي 45% إلى 15%، كما سمح قانون للشركات الأجنبية بتملك ما نسبته 100% من أي أصول عراقية.

بات العراقيون ينظرون إلى مخطط بريمر خصخصة المائتي شركة المملوكة من الدولة، كما ينظر إلى عملية رفع القيود التجارية، كفعل آخر من أفعال الحرب، وبات العمال يدركون جيدًا أنه بهدف جعل الشركات تبدو أكثر جاذبية للأجانب كان لابد من أن يفقد ثلثاهم وظائفهم.

كانت تلك القوانين والخطوات من قبل بريمر والولايات المتحدة سببًا مباشرًا في عمليات تفجير واعتداء على تلك الشركات الأجنبية من قبل العراقيين، لتغرق البلاد في موجة عنف، استهدفت تلك المشاريع بشكل مباشر.

الفصل الثامن عشر

تزايدت الحماسة للمشاركة السياسية في بغداد في الصيف الذي تلا اجتياح العراق، وتصاعد الغضب والمظاهرات، وباتت إدارة بوش في وضع صعب جدًّا أمام هذه الحماسة العارمة للديموقراطية، إلا أنه اتضح في ذلك الصيف أن أي تنازل في السلطة كان سيعكس التخلي عن الحلم برؤية العراق نموذجًا للاقتصاد المخصخص المطعم بقواعد عسكرية أمريكية.

نكثت واشنطن عهودها بإحلال الديموقراطية، وأمرت برفع مستويات الصدمة آملة أن تفي الجرعات القوية بالغرض، وأعاد هذا القرار سلسلة الفتوحات لتحرير الأسواق التي كانت قد بدأت في جنوبي أمريكا اللاتينية، حيث تم فرض العلاج الاقتصادي بالصدمة عنوة بالاستعانة بالتعذيب والخطف وقمع الديموقراطية، ضد كل من وقف أمام هذا المشروع.

تم إلغاء الانتخابات في العراق، واستعوض عنها بريمر بسلسلة من التعيينات، كان العراقيون في تلك المرحلة لا يزالون يتوقعون أن تفي واشنطن بوعودها بتنظيم انتخابات وطنية لتسليم السلطة، لكن بريمر أعلن أن الانتخابات العامة باتت احتمالاً غير وراد.

شكل إلغاء بريمر للانتخابات الوطنية خيانة عظمى للشيعة في العراق، والذين كانوا متأكدين من أنهم سيسيطرون على هذه الحكومة، واتخذت مقاومتهم في البداية شكل مظاهرات ومسيرات سلمية.

تحولت المظاهرات إلى مقاومة من قبل العراقيين، وصعدت قوات الاحتلال تكتيكات الصدمة مع ازدياد حجم المقاومة، وتمت عمليات اقتحام واعتقالات واسعة.

كانت أساليب الاعتقال والاحتجاز تعرف بالأساليب القصوى لاعتقالات الصدمة، عبر عمليات تعذيب وحشي.

واجه الجيش الأمريكي مشكلة كبيرة وعجيبة مع ظهور صور سجن أبي غريب الشهيرة، وأفصحت منظمة هيومن رايتس ووتش أن التعذيب بما فيه الصدمات الكهربائية ساد وظهر في المعتقلات، من قبل الإدارة العراقية والإشراف الأمريكي.

ظهرت فرق الموت في العراق، وأصبح من المألوف رؤية الجثث المقتولة المشوهة تملأ الشوارع وعلى جانب الطرقات، ومع انهيار الصناعة العراقية لم يبق عمل مزدهر في السوق العراقية سوى الخطف وطلب الفدية والذي انتشر بصورة رهيبة.

الفصل التاسع عشر

تنظيف الشاطئ التسونامي الثاني

في سريلانكا يحتدم الصراع حول شاطئ أروغام باي السياحي بين الصيادين وبين أصحاب الفنادق الذين يرغبون في تنظيف الشاطئ من الصيادين، لكن فشل أصحاب الفنادق على الرغم من محاولاتهم، والتي قاموا في إحداها بحرق بعض أكواخ الصيادين، لكن لن ترهب الصيادين تلك الأعمال وازدادوا تمسكًا بأماكنهم.

لكن التسونامي عندما ضرب المكان قضى على كل ما لم يتمكن منه الحريق، واكتسح الشاطئ بالكامل لتختفي كل البنى الهشة، وحين عادت العائلات المنكوبة إلى أماكنها بعد تخفيض حالة الطوارئ، كانت الشرطة بالمرصاد، ومنعت السكان من إعادة بناء ما تدمر، وباتت الشواطئ محاطة بحدود لا يمكن النفاذ إليها.

أصبح هؤلاء الصيادون بدون مأوى، وانتقل مئات الآلاف من الأشخاص من الشاطئ إلى مخيمات مؤقتة، كانت مخيمات مصنوعة من صفائح التنك الرقيقة التي تحبس الحرارة مما اضطر السكان للمبيت في العراء، وباتت هذه المخيمات مع الوقت متسخة جدًّا، مما ولد أمراضًا كثيرة.

صدر إعلان رسمي من الحكومة باعتبار منطقة الشواطئ تلك منطقة أمنية الهدف منها الاحتياط في حال ضرب البلاد تسونامي آخر.

اعتبر الصيادون أنها حجة استخدمتها الحكومة للقيام بما أرادت قبل التسونامي، تطهير الشاطئ من الصيادين.

في مرحلة إعادة الإعمار وبعد أربعة أيام على حلول الكارثة قامت الحكومة بخطوة مهدت الطريق للخصخصة، رفعت الحكومة سعر المازوت، وبدأت تضع قوانين لتفكيك شركة الكهرباء الوطنية كخطة لفتحها أمام القطاع الخاص.

في الماضي كان الشعب السريلانكي معارضًا لهذه السياسات، لكنه في تلك اللحظة كان يتضور جوعًا في المخيمات، ولا يفكر سوى في كيفية البقاء على قيد الحياة حتى اليوم التالي، لكن حين يستيقظ من كابوس التسونامي سيكتشف ما قد تقرر، وسيكون الضرر قد لحق بالبلاد.

حدث نفس الشيء سابقًا خلال إعصار ميتش 1998 في أميركا الوسطى في الهندوراس وغواتيمالا ونيكارجوا، وتم بيع العديد من الشركات وخصخصتها خلال الكارثة.

كانت واشطن جاهزة حين ضرب التسونامي للانتقال بنموذج ميتش إلى المرحلة التالية، ولم تكن هذه المرحلة تهدف إلى قوانين فردية جديدة فحسب، بل إلى سيطرة الشركات الكاملة على إعادة الإعمار.

الفصل العشرون

كارثة الفصل العنصري

عالم منقسم بين مناطق خضراء وأخرى حمراء

اعتبر إعصار كاترينا مأساة لكنها شكلت فرصة أيضًا، كما كتب ميلتون فريدمان

استضافت مؤسسة "هريتاج" لقاء للأيديولوجيين من أصحاب الأفكار المشتركة، بالإضافة إلى مشرعين جمهوريين، وتوصل المجتمعون إلى لائحة تضمنت 32 شعارًا سياسيًّا آتية مباشرة من كتاب مدرسة شيكاغو.

كانت النقاط الثلاثة الأولى:

أولاً: تعليق القانون الذي كان يجبر المتعاقدين على دفع إعاشة.

ثانيًا: جعل منطقة الكارثة منطقة استثمار حرة معفية من الضرائب.

ثالثًا: تحويل المنطقة بأكملها إلى منطقة تنافس اقتصادي.

في غضون أسابيع سيطرت الشركات التي تديرها الحكومة في العراق على أكبر العقود لإعادة إعمار القواعد العسكرية على طول الشاطئ.

كان هناك مشهد مألوف آخر، وهو نفور المتعاقدين من توظيف أشخاص محليين، قد يعتبرون إعادة إعمار نيو أورلينز ليس كوظيفة فحسب، بل جزء من تضميد جراح مجتمعهم وتقويته، إلا أنه بقي سكان الساحل الخليجي مثلهم مثل الشعب العراقي، مكتوفي الأيدي، بينما تجني الشركات أرباحًا طائلة، وقد أثبتت إحدى الدراسات أن ربع عمال إعادة الإعمار كانوا من المهاجرين غير الشرعيين، معظمهم من أمريكا اللاتينية، والذين يشكلون يدًا عاملة، كلفتها أقل بكثير من العمال الشرعيين.

الفصل الحادي والعشرون

فقدان حافز السلام

الخطر الإسرائيلي

ما إن بدأت الكوارث تترجم مؤخرًا إلى أرباح طائلة، بات عدد كبير من الأشخاص يعتقد أن الأثرياء والنافذين يتعمدون التسبب في الكوارث للاستفادة منها.

وأظهر استطلاع للرأي أجري في الولايات المتحدة أن ثلث من شملهم الاستطلاع يظنون أن للحكومة يد في أحداث 11 سبتمبر، وأنها لم تقم بما ينبغي لإيقافها، وتدور شكوك مشابهة حول عدد من الكوارث الحديثة، وقبل في لويزيانا بعد كارثة كاترينا إن السدود لم تتحطم من تلقاء أنفسها، بل كان تحطمها مفتعلاً.

الحقيقة أقل شرًّا من ذلك، لكنها أكثر خطورة، فرأسمالية الكوارث لا تخطط عمدًا لتسبب في الكوارث التي تغذيها (العراق يشكل استثناء)، إلا أن الإثباتات كثيرة على أن هذه الشركات العاملة فيها تبذل جهدها لتستمر موجة الكوارث.

اتضح أن زحف رأسمالية الكوارث إلى الإعلام هو نوع جديد من تضافر الشركات يؤدي إلى اندماج عمودي لقى شعبية في التسعينيات، فكلما وجه الإعلام حديثه نحو الإرهاب أصيبت المجتمعات بالذعر، وظن الناس أن الإرهابيين متربصون في كل مسجد في العالم، مما يزيد من كلفة الأخبار وينمو نظام الهوية الإلكترونية، وتزداد مبيعات آلات رصد المتفجرات.

إن كان حلم العالم الصغير الخالي من الحدود مفتاح الأرباح في التسعينيات، فكابوس الجهاديين والمهاجرين غير الشرعيين الذين يهددون الحصن الغربي، يلعب الدور نفسه في الألفية.

إسرائيل ودولة الفصل في الكوارث

اختبرت إسرائيل في معظم العقد الماضي إشكالية دافوس المخصخصة الخاصة بها، فازدادت الحروب والهجمات ضدها، إلا أن سوق العملة في تل أبيب ارتفع إلى معدلات قياسية



مع تزايد العنف.

يرجع ذلك إلى نجاح إسرائيل في بناء اقتصاد يتوسع على صعيد السوق كاستجابة لتزايد العنف، ومصانع إسرائيل التكنولوجية منشغلة بتطوير صناعة الأمن القومي، وهي لا تزال تسيطر على هذا القطاع إلى اليوم.

ويقدر معهد التصدير الإسرائيلي أن إسرائيل تمتلك 350 شركة معنية ببيع منتجات الأمن القومي، وباتت إسرائيل بفضل هذا التطور من وجهة نظر شركاتية مثالاً يجب اتباعه في سوق ما بعد 11 سبتمبر.

وأصبحت إسرائيل البلد الذي ينبغي قصده من أجل تكنولوجيا محاربة الإرهاب، وأصبحت معظم دول العالم تستعين بالشركات الإسرائيلية في مجال الأمن والتكنولوجيا، فكاميرات لندن من صنع شركة إسرائيلية "فرينت"، كما تشرف نايس سيستمز على اتصالات شرطة لوس أنجلوس، وأنظمة حماية برامج الكمبيوتر المستخدمة في أكبر شركات الكهرباء الأميركية، من صنع العملاق الإسرائيلي "تشك بوينت"، ونظام أمن قصر باكينغهام من تصميم "ماغال" الإسرائيلية، والقائمة تطول.



هدية العدد ١٥ من مجلة كلمة حق أكتوبر ٢٠١٨